الوجه الاقتصادي للأمبريالية الأمريكية

أديب اللجمي

بالرغم من قوتنا المادية الهائلة ، نحن بحاجة الى أسواق عالمية نصرّف فيها فائض انتاجنا الزراعي والصناعي . ونحن بحاجة ايضاً ، في سبيل دعم زراعتنا وصناعتنا ، الى المواد الاولية والمنتجات الحيوية الموجودة في بلدان بعيدة عنا . » من خطاب لأيزنهاور ، يوم كان رئيساً للولايات المتحدة، ألقاه في ٢٠ كانون الثاني ١٩٥٣ .

دراسات وبحوث كثيرة ، وصفحات بالألوف ، وعشرات الألوف ، كتبت عن المعونات الأمريكية للبلاد الأجنبية ، وعن حرص الولايات المتحدة على إقامة « التحالف في سبيل التقدم » وعن عفة الولايات المتحدة تجاه الاسواق

الخارجية والمواد الاولية الموجودة خارج بلادها، وعن تخمة الولايات المتحدة بالثروات الاولية التي تزخر بها أراضيها، وعن تفرد الولايات المتحدة بما يسمى « سياسة الاكتفاء الذاتي » . وقد تكون هذه الدراسات صادرة عن حسن نية ، او عن جهل بالواقع ، أو عن غش متعمد . ولكن معرفة الواقع ، على حقيقته ، يجب ان تظل هي المنطلق لفهم السياسة الامريكية من جهة ، وادراك درجة تبعيتها للعوامل والقوى الاقتصادية التي تتحكم فيها ، من جهة أخرى . وربما كانت الولايات المتحدة الامريكية اكثر تمسكاً من أية دولة أخرى في العالم ، باخضاع أهم وجوه نشاطها القومي لسلطان سادة الدولار والقابضين على الاحتكارات الكبرى : أي للأمبريالية الاقتصادية .

ان الدراسة الكبيرة الدقيقة التي كتبها هاري ماغدوف Harry Magdoff في العام الماضي ، تعتبر واحدة من الدراسات الاساسية في معرفة « الوجه الاقتصادي للامبريالية الامريكية » ، وذلك لما تتمتع به من موضوعية واعتماد على الوقائع والوثائق الرسمية[1] وقد حرصنا على تقديم خلاصة وافية لها في هذا المقال .

* * *

يتداول بعض الناس حالياً في امريكا ثلاث نظريات متكاملة تنفي ارتباط الأمبريالية الاقتصادية بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة :

---

(١) هاري ماغدوف امريكي ، وأستاذ للاقتصاد في مدرسة العلوم الاجتماعية بالولايات المتحدة ، نشر هذه الدراسة في مجلة Monthly Review - November 1966 الامريكية وفي مجلة « الازمنة الحديثة Les Temps Modernes - Mars 1967 » الفرنسية . وقد اعتمدنا في تقديم هذا البحث على النص الفرنسي .

أولاها ، أن مقوم السياسة الخارجية الامريكية ليس هو الأمبريالية الاقتصادية بل اعتبارات سياسية صرفة ، ومصالح الأمن القومي الخاص بالولايات المتحدة.

وثانيتها ، أن الأمبريالية الاقتصادية لا يمكن أن تكون المحرك الأول لسياسة الولايات المتحدة الخارجية ، لأن التجارة الخارجية لهذه الدولة ورؤوس أموالها الموظفة في الخارج ليس لها الا تأثير تافه على مجموع الاقتصاد القومي للبلاد.

وثالثتها ، أن هذه التجارة الخارجية وهذه الرساميل الموظفة بحكم كونها لا تؤثر الا قليلا على مجموع الاقتصاد الأمريكي ، فالنتيجة هي **أن الأمبريالية الاقتصادية ليست محتاجة الى أن توجه السياسة الخارجية .**

وفي ضوء هذا المنطق والتفكير ، يرى بعض الليبراليين واليساريين في الولايات المتحدة أن السياسة الخارجية الراهنة لبلادهم ، بقدر ما تخضع للمصالح الأمبريالية ، تسير في طريق ضارة تؤذي بمصالح البلاد القومية ... ويذهب هؤلاء الى حد القول « إن بلادنا اذا شجعت بصورة جدية على تنمية البلاد الأجنبية اقتصادياً واجتماعياً حتى لو اقتضى الأمر قيام الولايات المتحدة بتبديد قيمة المؤسسات الأمريكية المؤممة في الخارج ، فان البلاد المتخلفة ستحتاج بعد برهة قصيرة الى زيادة استيرادها لرساميلنا ، وفي ذلك ضمان اكيد لاستمرار تدفق رساميلنا وصادراتنا الى الخارج بصورة متزايدة » .

* * *

مثل هذا التمويه الصارخ للامبريالية الأمريكية ، افتضح أمره ، وأصبح ضرورياً أن يواجه كل مسؤول امريكي الحقيقة التالية : **«ثمة وحدة أساسية وتامة بين مصالح امريكا : الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية »** .

فلم يعد ثمة شك لدى المتتبعين لسلوك الولايات المتحدة في حقيقة هذه الوحدة التي تربط بين الأهداف الاقتصادية واهداف الأمن القومي

لهذه الدولة . ولم يعد سراً ان مفهوم الامن القومي للولايات المتحدة يتضمن مبدأ « الدفاع عن النفس » من الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية ، كما يتضمن فذلكة سخيفة اخرى وهي ان تفادي خطر حرب كبيرة يملي على الولايات المتحدة ان تقمع الحروب الاهليـــة والثورات الداخلية التي تندلع بين حين وآخر هنا وهناك في بعض البلدان [1] .

وتتجلى « وحدة » المصالح هذه بوضوح اكبر لدى بحث الاهداف السياسية الصرفة للولايات المتحدة . ان الذين يحددون سياسة البلاد الداخلية ، واولئك الذين يشرفون على شؤون الدفاع الوطني ، جميعهم يردون كل شيء الى الحتمية الاقتصادية الصارمة . ومنطقهم غاية في البساطة : لاحرية سياسية الا الحرية الشائعة في الديمقراطيات المسماة بـ « الغربية » ، والمقوم الاقتصادي لهذه الديمقراطيات هو التعامل الحر . ونتيجة لذلك ، فان الهدف السياسي القاضي بالالتزام بالدفاع عن « العالم الحر » يتضمن بالضرورة التزام الدفاع عن حرية التجارة والتعامل . ويحدث ان تكون هناك شعوب لم تبلغ مرتبة القدرة على ان تحكم نفسها بنفسها ، فتيسر الولايات المتحدة قيام ديكتاتوريات عسكرية فيها ، تؤهلها لبلوغ الديمقراطية فيما بعد ، حسب زعمها ، وتصون نظام « المشاريع الحرة » ، وهذا هو الاساس .

ان الاعتبارات الاستراتيجية ، واعتبارات الدفاع الوطني ، بل واعتبارات السياسة الخارجية ، كلها أصبحت في خدمة الامبريالية الاقتصادية للولايات المتحدة ، وفي خدمة الرساميل الموظفة ، وموظفيها في الخارج . بل إن كبار رجال الأعمال الامريكيين يدركون هذه البديهية . فهذا هو يوجين بلاك Eugene Black المدير العام السابق

---

(١) راجع : الامن الدولي ، وجهه العسكري
International Security - The Military Aspect
منشورات : Garden City . N. Y. Doubleday and Co. 1958 صفحة ٢٤

للبنك الدولي ، يتحدث عنها دون ليس : « **ان برامج المعونة الخارجية تشكل مورداً جديداً من الارباح للأعمال الامريكية** ، واهم هذه الارباح ثلاثة :

١ – المعونة الخارجية تفتح فوراً اسواقاً هامة في وجه المنتجات والمصالح الامريكية .

٢ – المعونة الخارجية تيسر قيام أسواق جديدة في ماوراء البحار للشركات الامريكية .

٣ – المعونة الخارجية تثبّت في البلاد الأجنبية التي تحصل على هذه المعونة مبدأ « المشاريع الحرة » التي تمكن الشركات الامريكية من ان تنشط في داخلها[1] » .

وهاهو نائب وزير التجارة الأمريكية يعلن بوضوح أكبر أمام رجال الأعمال الأمريكيين ، « أن إيقاف تنفيذ برامج المعونة العسكرية والاقتصادية التي تقدمها الولايات المتحدة للبلاد الأجنبية ، يعني تهديد الرساميل الأمريكية الموظفة في الخارج بالضياع . »

ولعل السطور التالية ، التي كتبها في سنة ١٩٦٥ نائب رئيس بنك تشيز مانهاتن Chase Manhattan Bank (من أكبر البنوك في أمريكا وفي العالم كله ، ونشرف على جميع الأعمال التجارية الأمريكية في قطاع الشرق الأقصى) أكثر بلاغة في دلالتها ووضوحها مما سبق وعرضناه : « لقد كان اصحاب الرساميل الأجانب قلقين في الماضي من الاحتمالات السياسية في هذه المنطقة (جنوب شرقي آسيا) . غير أن عمل الولايات المتحدة في فيتنام خلال هذه السنة ، وقد برهنت فيه عن عزمها على حماية الأمم الحرة في هذه المنطقة من العالم ، قد طمأن أصحاب الرساميل الآسيويين والغربيين على حد سواء . وإنني لأعتقد بأن ثمة مايحمل على توقع حدوث نمو اقتصادي في بلاد آسيا الحرة ، شبيه بما عرفته أوروبا حين زودت بالحزام الواقي الذي أقامه مذهب ترومان ومنظمة

(١) من مقال ليوجين بلاك عنوانه بالانكليزية The Domestic Dividends of Foreign Aid نشر في مجلة

Columbia Journal of World Business, Vol I - 1965 P. 23

حلف الأطلسي . لقد حدث مثل ذلك أيضاً في اليابان حين تدخلت أمريكا في حرب كوريا ، فبدأت من قلق أصحاب الرساميل هناك[1] » .

أهمية العمليات الاقتصادية الأمريكية في الخارج ، ودورها

طبيعي ، بعد هذا التمهيد ، أن نقدم ، بالاحصاءات الرسمية ، الدلائل على أولوية الامبريالية الاقتصادية على شؤون السياسة الخارجيـــة والدفاع الوطني للولايات المتحدة من جهة ، وعلى تحكم هذه الأمبريالية الاقتصادية في سائر الاعتبارات الأمريكية الأخرى .

ومن المناسب أن نشير بادىء ذي بدء الى أن **حجم الصادرات الأمريكية لايشكل الا جزءاً تافهاً من القيمة الحقيقية للمصالح الأمريكية في الخارج** . ان الرساميل الموظفة في الخارج هي التي تتزايد وترتفع بنسبة متسارعة ، أكثر بكثير من نسبة تزايد الصادرات . وللرأسمال ميزة فريدة هي أنه يزيد نفسه بنفسه . فالانتاج الناشيء عن توظيف رأس المال ، يؤمن دخلاً كافياً لتغطية نفقات اليد العاملة ، وأثمان المواد الأولية ، وفائدة رأس المال أيضاً ، واستهلاك الموارد الطبيعية ، وتحقيق الأرباح الصافية في الوقت ذاته . ان مجموع الرساميل الأمريكية التي توظف كل سنة في الخارج ، تزداد حجومها كما يزداد انتاجها . ثم إن الشركات الأمريكية العاملة في الخارج ، تستطيع بهذه الطريقة أن تعبىء رساميل البلاد الأجنبية وتضعها في خدمتها . وقد كان من نتائج انضمام رؤوس الأموال الأمريكية الموظفة في الخارج الى رؤوس الأموال الأجنبية المعبأة لخدمة الشركات الأمريكية ، أن بلغت قيمة انتاج هذه التوظيفات ، في سنة ١٩٥٠ ،

---

(1) Economic Considerations in Foreign Relations. In -Political Review Vol 1, July 1965, PP 45 - 46

٤و٥ أضعاف قيمة الصادرات الأمريكية الى الخارج ، ثم أصبحت في سنة ١٩٦٤ تعادل ٥و٥ اضعاف قيمة هذه الصادرات .

	بمليارات الدولارات	
	سنة ١٩٥٠	سنة ١٩٦٤
قيمة انتاج رؤوس الأموال الموظفة في الخارج	٤٤	١٤٣
قيمة الصادرات الأمريكية الى الخارج	١٠	٢٥

وبالنتيجة فان قيمة الانتاج الامريكي الموظف والمصدر الى الخارج قد بلغت / ١٦٨ / مليار دولار في سنة ١٩٦٤ .

ويلاحظ ايضاً أن أرباح التوظيفات في الخارج تتزايد بنسبة اعلى بكثير من تزايد أرباح الشركات في داخل امريكا . فبينما بلغت أرباح هذه التوظيفات ٢و١ مليار دولار مقابل ٧و٢١ مليار لأرباح الشركات في داخل الولايات المتحدة سنة ١٩٥٠ ، اصبحت الأرباح الاولى ٨و٧ مليار دولار مقابل ١و٣٦ مليار للثانية في سنة ١٩٦٥ . أي ان مجموع الارباح المتحققة في الخارج تزداد ارتفاعاً ، كما أن نسبتها أعلى بكثير من نسبة أرباح الشركات في داخل الولايات المتحدة .

من هنا نشأ حرص رجال الاعمال الامريكيين على زيادة توظيف رساميلهم في الخارج ، وعلى وجوب حمايتها بالاساطيل والجيوش الامريكية . ان الامبريالية الاقتصادية هي الاساس ، وينبغي أن تظل المحرك والموجه لسياسة الولايات المتحدة وسلوكها الدولي. ولقد بلغت الاعمال الامريكية نقطة لاسبيل الى الرجوع عنها. فالتكنيك الصناعي الامريكي الرائع ، ووفرة رساميلنا ، مكنتا بلادنا من أن تحقق اروع ازدهار سلمي مر في تاريخها . ولكي نستمر متمسكين

بهذه الانطلاقة، فقد بحثنا منذ عدة سنوات عن مواطن جديدة واضافية لرساميلنا في الخارج . ان هذه الاسواق الخارجية تقدم لنا اجمل امكانات الازدهار التي يمكن أن نفكر بها .» هذه الاقوال هي لأحد رؤساء شركة جنرال ألكتريك الامريكية .

ربّ ملاحظ يقول ان الولايات المتحدة تزيد من قواتها المسلحة وتضاعف من ميزانية التسلح وصناعة القنابل النووية ، وتنشر جيوشها وأساطيلها ، وتنشىء القواعد العسكرية في اماكن متفرقة من العالم ، بقصد حماية « العالم الحر » من عدوان خارجي قد يقع عليه . ان فهم الامور من هذا المنظار هو فهم خاطىء كلياً . فالقوات المسلحة الامريكية ، بقدر ماهي في خدمة الامبريالية الاقتصادية، تخضع لتمويل هذه الامبريالية بالذات . وما تسميه الولايات المتحدة بـ « **العالم الحر** » ، **انما هو بالضبط تلك المناطق الجغرافية من العالم التي يرتع فيهـــا رأس المـــال حراً** ، يتوظف كما يشاء ، ويتاجر أنى يريد . ان القواعد العسكرية الامريكية المنتشرة في جميع انحاء الارض ، والجيوش الامريكية التي تحارب اليوم خارج حدود بلادها ، وكل هذا الجهاز الدفاعي وما يستلزمه من نفقات هائلة ، والمعونات العسكرية والحربيـــة المقدمة الى بعض البلاد الاجنبيـــة ، أن كل هذه وتلك تخدم بالأساس مصالح عالم المال والاقتصاد والمشرفين عليه . انها تتجلى في :

١ — حماية مصادر المواد الاولية الراهنة والممكنة .

٢ — الدفاع عن الاسواق الخارجية وتوظيف الرساميل في الخارج .

٣ — تأمين سلامة الطرق التجارية البحرية والجوية .

٤ — المحافظة على المناطق التي تتمتع فيهـــا التوظيفات المالية والتجارة الامريكية بامتيازات خاصة .

٥ – تكوين زبائن جدد وأسواق في الخارج بفضل المعونة الاقتصادية والعسكرية التي تقدمها امريكا للبلاد الاجنبية .

٦ – المحافظة على بنية الاسواق الرأسمالية في العالم لمصلحة الولايات المتحدة وشركائها من البلاد الصناعية التي يتغلغل فيها رأس المال والنفوذ الامريكيان بصورة متزايدة .

وإلى هذه الاهداف الامبريالية التسلطية ، يجب ان نضيف غرضاً آخر ، هو أن زيادة الجيوش والتسلح والمعونات العسكرية للخارج تعود بالنفع من حيث النتيجة على رجال المال والاعمال الامريكيين أنفسهم لأنها تزيد من انتاجهم . ولكن وراء هذه الاهداف ، أهدافاً اخرى اكثر اظهاراً للعامل الاقتصادي في هذه الامبريالية الامريكية :

١ – ان الصادرات والنفقات العسكرية تؤثر تأثيراً بيناً على الاقتصاد إذ تقوي النواة الاستراتيجية للبنيان الصناعي الراهن . وهذا أمر هام ينبغي الالحاح عليه ، لأن الاستثمارات ليست ، كما نظن أحياناً ، نهر آمن الرساميل، يسيل بحرية . ان ثمة ارتباطاً متبادلاً بين النظام الحالي للأجور ، والأسعار ، والارباح ، وبين بنية الصناعة المتطورة وخاصة الصناعات التكميلية ، وبين اتجاه الاستثمارات الجديدة ذات الدخل المرتفع .

ان حركة الاستثمارات ليست من فعل الصدفة . وليس من فعل الصدفة ايضاً كون الرأسماليين لايوظفون اموالهم في قطاعات يمكن ان تحل الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التي تعانيها الولايات المتحدة ، كإبعاد الفقر ، وإقامة صناعات تحقق للسود المساواة الاقتصادية الفعلية مع البعض ، وتنمية المناطق المتخلفة من

الولايات المتحدة ، وحل مشكلة السكن . ان الرأسماليين حين يوظفون اموالهم في قطاعات كهذه لا يضمنون لها النمو المستمر ، ولا الارباح المتزايدة ، وهم فوق ذلك لا يأمنون عليها . بينما توظيف هذه الرساميل في صناعات الحرب والدفاع تحقق لهم ارباحاً كبيرة جداً وتزيد بالتالي من الرساميل ذاتها .

٢ ــ ان المعونات الاقتصادية والعسكرية للخارج تفيـــد في منع تحول الركود الاقتصادي الصغير الذي يقع في بعض القطاعات الى أزمات كبيرة .

٣ ــ ان الاحتكارات الصناعية هي التي تشرف على الاستثمارات الخارجية وهي لا توجهها إلا الى الأمكنة « الأمينة » ، الى الأمكنة التي يكون فيها الربح مرتفعاً جداً ، كما تكون الرساميل فيها مضمونة من أي خطر . من هنا جاء تنسيق النشاط والخطط بين أجهزة الدولة ورجـــال الأعمال في الولايات المتحدة ضرورة حتمية وحاسمة . ومن هنا كان التنسيق تاماً بين المشرفين على الخطط العسكرية من جهة ، وبين أصحاب الرساميل من جهة ثانية .

ومن المناسب هنا ان نبدد ضلالاً آخر من مجموعة الأضاليل التي تنشرها الامبرياليـــة الامريكية حول عدم تأثيرها على السياسة الخارجية للولايات المتحدة . وخلاصته ان نسبة صغيرة جـــداً فحسب من رجال الأعمال الأمريكيين يفيدون من العقود العسكرية ومن الاسواق الخارجية . ان هـــذا الادعاء يصح لو ان رجال الاعمال الامريكيين يتألفون من وحدات اقتصادية متعادلة في كبرها . ولكن اعظم انواع التمركز المالي والصناعي في العالم نشهدها في الولايات المتحدة . ففي القطاع الصناعي ، توجد خمس شركات تمتلك وحدها اكثر من ١٥٪ من مجموع رأس المال العام للقطاع الصناعي كله (احصاءات سنة ١٩٦٢) ، وهناك مئة شركة تمتلك وحدها ٥٥٪ من

مجموع رأس المال الصناعي (١) ثم إن هذه الشركات متضامنة ومتماسكة فيما بينها وهي التي تقوم بتنفيذ اكثر العقود التابعة للجيش الامريكي ، كما تقوم بأعظم التوظيفات في الأسواق الخارجية . وإذا أخذنا المؤسسات الخمسين الكبرى التي تعمل في الخارج ، وجدنا منها ١٢ مؤسسة تعمل في مشاريع البترول ، ٥ مؤسسات في مشاريع الطيران ، ٣ مؤسسات في المشاريع الكيميائية ، ٣ مؤسسات في الصناعات التعدينية ، ٣ مؤسسات في صناعات السيارات ، ٨ مؤسسات في المواد الكهربائية والالكترونية ، ٣ مؤسسات في الكاوتشوك . ان هذه المؤسسات السبع والثلاثين تستقطب وحدها ٩٠٪ من مجموع رساميل المؤسسات الخمسين الكبرى التي اشرنا اليها اعلاه .

فثمة تمركز للاستثمارات الامريكية في الخارج بين أيدي عدد قليل من الشركات الكبرى . واذا دققنا في هذه الظاهرة وجدنا أنها ترتد الى تمركز النشاط الاقتصادي ذاته داخل الولايات المتحدة في عدد قليل من المؤسسات الكبرى ، بل إن وجود مثل هذه المؤسسات الاحتكارية الضخمة هو ما يتيح تجميع رساميل كبيرة وتوظيفها في الخارج .

الاستثمارات الموظفة في الخارج (حتى سنة ١٩٥٧)

اهمية الاستثمارات	عدد مؤسساتها	نسبتها المئوية من مجموع الاستثمارات في الخارج
١٠٠ مليون وأكثر	٤٥	٥٧
من ٥٠ — ١٠٠ مليون	٥١	١٤
من ٢٥ — ٥٠ مليون	٦٧	٩
من ١٠ — ٢٥ مليون	١٣٦	٨
من ٥ — ١٠ مليون	١٦٦	٥

(١) من أحصاءات نشرتها أحدى لجان مجلس الشيوخ الأمريكي — اعمال الدورة الثانية سنة ١٩٦٤ — الصفحة ١١٥ من النشرة .

ان الاشراف على الاستثمارات الخارجية وتوزيعها هما من ضرورات الامبريالية الاقتصادية الامريكية للسيطرة على الاسواق العالمية من جهة ، وعلى المواد الأولية في العالم ، من جهة ثانية . لابد من حذف المنافسة الحرة في هذا المجال ، لتتمكن الفئة الصغيرة المحتكرة من السيطرة على اسعار المواد الأولية وتوزيعها وإحباط التفكير بقيام شركات منافسة في المستقبل . ان السياسة الخارجية الامريكية هي ، مرة اخرى ، في خدمة هذه الأهداف .

لقد بلغ جشع الامبريالية الامريكية لمصادر المواد الأولية في العالم درجة مذهلة من الحدة خلال السنين العشرين الأخيرة . ومعروف ان الولايات المتحدة محتاجة الى العالم الخارجي ، كي تؤمن منه لنفسها عدداً من المواد الأولية الهامة (البوكسيت ، الكروم ، النيكل ، المنغنيز ، التونغستين ، القصدير) . وهي إذ كانت في الماضي تعتمد على ما في باطن اراضيها من ثروات ومواد اولية كبيرة وغنية ، فان هذه المواد قد اخذت تتضاءل كميتها ، الأمر الذي سبب القلق لحكومة الرئيس ترومان ، فشكل لجنة قدمت تقريراً سنة ١٩٥٢ جاء فيه : « في مطلع هذا القرن ، كانت الولايات المتحدة تنتج كمية من المواد الاولية تزيد ١٥٪ عن حاجتها الداخلية . وفي سنة ١٩٥٠ لم يعد لدى الولايات المتحدة فائض من هذه المواد ، بل اصبحت معوزة لها ، اذ هي تستهلك ١٠٪ زيادة عما تنتجه منها . وجميع الدلائل تشير الى انها ستحتاج الى ٢٠٪ منها في سنة ١٩٧٥ زيادة عن انتاجها الداخلي » .

فالأسواق العالمية الخارجية ، كالمواد الاولية في البلاد الاجنبية ، جميعها تحتاج اليها الولايات المتحدة ، ويجب بالتالي ان تظل تحت تصرفها . في سبيل ذلك لاتتورع السياسة الخارجية الامريكية عن اتباع مختلف الوسائل والأساليب

للابقاء على هذا الوضع ؛ حتى ليكاد يقتنع المطلع على حقيقة الأمور ان الاساطيل البحرية ، والقواعد العسكرية ، والمؤامرات ، ونشاط وكالة الاستخبارات المركزية ، وجهود الديبلوماسية الامريكية كلها ، ليست سوى قوى في خدمة رأس المال الأمريكي ، والأمبريالية الاقتصادية الامريكية .

ومن المفارقات الطريفة في هذا الباب ، أن المعونات الامريكية للبلاد المتخلفة ، تتراءى للسذج من الناس ، وكأنها تعبير عن نزعة انسانية ترمي الى التخفيف من بؤس البؤساء ، وفقر المعوزين . ولكن الواقع غير ذلك فعلا . ان المعونات الامريكية الخارجية هي الطعم الذي يتيح فيما بعد للرساميل الامريكية أن تدخل الى البلاد المتخلفة وتضع يدها على مواردها وثرواتها الاولية ، وتحصل بذلك على ارباح مذهلة حقاً ، وتترك البلاد متخلفة على حالها من التخلف والبؤس . فالأرباح والدخول التي تحققها الاستثمارات الامريكية في الخارج تتجـلى في الجدول التالي :

بليـارات الدولار

	في أوروبا	في كندا	في امريكا اللاتينية	في مناطق اخرى
الاستثمارات المقدمة من الولايات المتحدة	٨،١	٦،٨	٣،٨	٢،٥
الدخل المتحقق من هذه الاستثمارات ، والمعاد الى الولايات المتحدة	٥،٥	٥،٩	١١،٣	١٤،٣

معنى ذلك ان البلاد المتخلفة تخرج منها أموال تعادل ثلاثة أضعاف مايدخل اليها من استثمارات الاموال الامريكية ، بسبب هذه الاستثمارات

بالذات . فهل نعجب بعد ذلك اذا ألفينا هذه الاستثمارات تزداد سنة بعد سنة في بلاد العالم الثالث ، فتنتقل من ٤٫٥ مليار الى ١٠٫٣ مليار دولار في بلاد أمريكا اللاتينية ، ومن ١٫٣ مليار الى ٤٫٧ في آسيا وافريقيا ؟

ليست المثل الانسانية اذن ، ولا الحرص على السلام ، ولا تحسين حال الشعوب المتخلفة ، ولا الجدية في اقامة تعاون دولي لخير البشر ، هي دوافع السياسة الامريكية . ان الامبريالية ، الامبريالية الاقتصادية وحدها ، كما تقدمها الوقائع ، هي المعيار والمقوّم والدافع الى جميع ألوان النشاط الامريكي العالمي. وكل تجاهل لهذا الواقع او تمويه له ، هو تضليل لكفاح الشعوب الطامحة الى حريتها وتقدمها .

جامعة الدول العربية

وضعها القانوني ونشاطها

د. كمال غالي

ان التكتل وتعدد المنظمات الدولية ظاهرة بارزة تعتبر سمة من سمات القرن العشرين. فالى جانب هيئة الامم المتحدة، المنظمة العالمية التي تكاد تضم كل دول العالم باستثناء الصين الشعبية، تقوم، متفرعة عنها، اكثر من خمس عشرة منظمة عالمية، يختص كل منها بوجه من وجوه النشاط الدولي الفني. واذا تركنا الامم المتحدة جانبا، نجد امامنا رابطة الشعوب البريطانية، وكتلة الدول الشيوعية كما تتجلى في حلف وارسو ومنظمة الكومكون، ومنظمة الدول الامريكية، ومنظمة حلف الاطلنطي، كما نجد المنظمات الاوربية العديدة :

المنظمة الاوروبية للتعاون الاقتصادي ، والمجلس الاوربي ، والمنظمة الاوربية للفحم والفولاذ ومنظمة الطاقة الذرية الاوربية ، والمنظمة الاقتصادية الاوربية . واذا وجهنا انظارنا نحو البلاد الافرو اسيوية نجد شبكة من الاحلاف العسكرية كميثاق المحيط الهادي للامن ، ومنظمة معاهدة جنوبي شرقي آسيا (بنكوك) ، والحلف المركزي . كما نجد: منظمة التضامن الافرو اسيوي ، **وفي الوطن العربي تقوم جامعة الدول العربية .**

أهداف الجامعة وتنظيمها :

وقد عقد ميثاق الجامعة العربية في عام ١٩٤٥ بين سبع دول عربية ، ولم تلبث الجامعة — مع اتساع حركة التحرر الوطني في الاقطار العربية وانحسار المد الاستعماري بشكله التقليدي — ان اصبحت تضم اليوم ثلاث عشرة دولة عربية ، فهي تمتد الآن من المحيط الى الخليج .

وقد رسم الميثاق للجامعة اهدافا متعددة تسعى لتحقيقها ، يمكن اجمالها على الوجه التالي :

آ — صيانة استقلال الدول الاعضاء .

فالاتحاد قوة دفاعية تمكن الاجزاء المنضمة اليه من مجابهة الاخطار الخارجية التي تتعرض لها بشكل اقوى واكثر جدوى مما لو ترك كل جزء وشأنه .

ب — التعاون في الشؤون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والصحية :

وتبرز اهمية هذا الهدف وخطورته اذا ذكرنا ان الشعوب العربية تجتاز مرحلة انتقال من مجتمع زراعي راكد الى نظم تساير التطور الاجتماعي في العالم ، ولكنها لم تبدأ هذا التطور في وقت واحد لاختلاف المؤثرات التي خضعت لها ، وبصورة خاصة الاستعمار الاجنبي ، فأخذت بدرجات متفاوتة باسباب المدنية الحديثة . تضاف الى هذه الحقيقة ان التفاوت لاينحصر ، كما قد يعتقد ، بين الدول العربية المختلفة ، بل انه اشد بروزا وظهورا في داخل كل دولة عربية . فما من شعب عربي في قطر من الاقطار يكون وحدة منسجمة من حيث التطور الاجتماعي . وفي اية دولة يمكن ان نجد البدو الرحل الى جانب طبقة اخذت بجميع مظاهر المدنية الحديثة ، وتتدرج بينهما بقية فئات الشعب في مختلف مراحل التطور . وتشترك هذه الدول كلها في ضآلة الدخل القومي ، بما يترتب

عليه من انخفاض مستوى معيشة جمهور الشعب ، وانتشار الفقر والمرض والجهل فيه . فالتعاون بين الدول في هذه المجالات انما يهدف الى تقريب مستويات التطور ورفع مستوى معيشة الجماهير واللحاق بموكب البلاد المتقدمة .

ج - النظر في شؤون البلاد العربية ومصالحها :

ماتزال بعض الاقطار العربية خارج اطار الجامعة، فقد اغتصبت الصهيونية العالمية بالتواطؤ مع الدول الكبرى فلسطين ، وتركيا لواء الاسكندرون ، وهنالك بعض الامارات الواقعة في الطرف الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب تخضع للاستعمار البريطاني. ووجود اسرائيل اسفينا في قلب الوطن العربي يفصل جزءه الافريقي عن جزئه الاسيوي يشكل خطرا دائما على حاضر البلاد العربية ومستقبلها ، ويفرض عليها تخصيص مواردها للدفاع بدلا من توجيهها للتنمية . ووجود الاستعمار البريطاني في الجنوب العربي المحتل يهدد امن المنطقة ، ويحجب التقدم عن ابنائها . والجامعة اذ تجعل من اهدافها النهوض بهذه المهمة التحريرية انما تقوم بمهمة قومية وانسانية ، تنطبق على المقاصد التي التزمت الامم المتحدة بالسعي ورائها ، من احترام المبدأ الذي يقضي للشعوب بحقوق متساوية ، وتجعل لها حق تقرير مصيرها، وتؤكد ايمانها بالحقوق الاساسية للانسان وكرامة الفرد وقدره وانتهاء عهد استغلال الانسان لأخيه .

د - التعاون مع الهيئات الدولية المنشأة لكفالة الامن والسلام وتنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية :

كان على الدول المؤسسة ان تختار بين عزلة تبعدها عن موكب الحضارة وتعاون دولي لاقامة عالم جديد على اساس العدالة والحرية . والعزلة امر مستحيل للعلاقات الوشيجة التي تربطها ببقية العالم ، وحالة الترابط العام المتبادل التي جعلت العالم شبه وحدة متماسكة . ولم يكن ثمة بد من اختيار هذا السبيل الاخير . فنص الميثاق على التعاون مع الهيئات الدولية ، فتساهم الجامعة بمواردها وبوقوعها على طرق المواصلات الرئيسية في العالم ، في حل المشاكل الاجتماعية الدولية ، ويكسبها تكتلها في المجال الدولي مركزاً مرموقاً يمكنها من خدمة قضية السلام . فحضارتها القديمة ، القائمة على التسامح والحرية والعدالة ، وقرب عهد اعضائها بالحرية ، والواجب الملقى على عاتقها في تحرير الاقطار العربية المحتلة اوالمستعمرة ، كل هذا من شأنه ان يجعل لها رسالة تسعى الى تحقيقها تقوم على هذه المبادىء السامية .

ونظرة الى الاهداف الثلاثة الاولى ، في ضوء تاريخ هذه البلاد ، وفي ضوء ديباجة

الميثاق ترينا انها تلتقي كلها في نقطة واحدة : هي الاتجاه الى تكوين دولة عربية قومية واحدة . فالجامعة انما قامت « تثبيتاً للعلاقات الوثيقة والروابط التي تربط الدول العربية، واستجابة للرأي العام العربي في جميع الاقطار العربية» .. اما هذه الروابط فهي: روابط القومية العربية التي تجعل من العرب امة واحدة رغم تعدد الدول والنظم السياسية . وما نداء الرأي العام العربي الا الدعوة الى الوحدة والانتظام في اهاب وحدة سياسية شاملة . ولهذا السبب بالذات "بسّط واضعو الميثاق اجراءات تعديله لجعل الروابط امتن وأوثق (مادة ١٩) ، وأجيز للدول الاعضاء اقامة روابط فيا بينها اقوى مما تضمنه ، فمهد الميثاق بذلك السبيل لاقامة اتحادات ووحدات جزئية تكون نوى" يسهل امتزاجها فيما بعد.

رسم الميثاق للجامعة اهدافا تسعى الى تحقيقها . وتحقيق هذه الاهداف يقتضي ايجاد منظمة خاصة تنهض بهذا الامر ، ويكون لها هيئات لايقوم للمنظمة كيان بدونها ، تزود بالاختصاصات اللازمة للسير في مهمتها . وهيئات الجامعة عديدة ، نكتفي منها بالاشارة الى ما تظمه الميثاق . وهي مجلس الجامعة ، ولجان فنية ، وامانة عامة .

ومجلس الجامعة هو الهيئة الرئيسية في الجامعة ، والاداة المعبرة عن ارادتها .

وقد وضع الميثاق على عاتق المجلس العبء الاكبر من نشاط الجامعة اذ انه يقوم على تحقيق اغراضها . **ويتألف من ممثلي الدول الأعضاء ، ولكل دولة صوت واحد** مها بلغ عدد ممثليها . **والمجلس هيئة دائمة تنعقد مرتين في السنة** ، كما يجتمع بصورة غير عادية كلما دعت الحاجة الى ذلك بناء على طلب دولتين من الدول الاعضاء .

والقاهرة هي مقر الجامعة ، وللمجلس ان يجتمع في اي مكان آخر يبغيه.

وتصدر قراراته بالاجماع – وهو الاصل – او بالاغلبية في حالات معينة كالتنظيم الداخلي وشؤون الموازنة والتحكيم . **وقرارات المجلس ملزمة للدول الأعضاء تنفذ فيها وفق نظمها الدستورية .**

وتحتفظ الدول الاعضاء بسيادتها واستقلالها ، ويتجلى ذلك بحقها في الانسحاب . كما تحتفظ بكامل اختصاصاتها الدولية مع بعض القيود . فالميثاق يحرم على الدول الاعضاء الالتجاء الى الحرب لفض المنازعات فيا بينها تحريما قاطعا ، ولم يورد الميثاق اي قيد جدي على حق الدول في عقد المعاهدات ، غير ان هذه الثغرة سدت في معاهدة الدفاع المشترك، التي تلتزم بها كل الدول الاعضاء ، فحرم على الدول الاعضاء عقد أي اتفاق دولي يناقض المعاهدة . وألا تسلك في علاقاتها الدولية مع الدول الاخرى مسلكا يتنافى مع اغراض هذه المعاهدة . **وتحتفظ الدول الأعضاء بحقها الكامل في التمثيل الخارجي .**

الشخصية القانونية :

ونستطيع الان – بعد ان اجلنا اهداف الجامعة وتنظيمها واختصاصاتها ، ان ننتقل الى تحديد طبيعتها القانونية . وبعبارة اخرى ان نحاول الرد على هذا السؤال : **هل تتمتع الجامعة بشخصية قانونية؟** واذا كانت كذلك فهل تمتد شخصيتها الى ميدان القانون الاتحادي العام والقانون الدولي العام معاً ، او تقتصر على احدهما فقط ، ام انها لاتعدو أن تكون رابطة قانونية (Vinculum juris) بين دول ذات سيادة تتمتع وحدها بالاختصاصات التي تباشرها الجامعة . والرد على هذين السؤالين يثير مسألة ثالثة : **ما هو مركز الجامعة بين مختلف الاتحادات الدولية ؟.**

ان أساس الشخصية المعنوية او القانونية في نظرنا هو وجود اهداف مشتركة . فالشخصية القانونية ما هي الا التعبير القانوني عن هذه الاهداف . ولكن هذه الشخصية لا قيمة لها اذا لم يوجد من يعبر عن ارادتها . فالشخصية المعنوية اذن جماعة تتكون لتحقيق أهداف معينة مشتركة وتتمتع بارادة خاصة ولها هيئات تعبر عن هذه الارادة .

فهل لجامعة الدول العربية شخصية قانونية متميزة ازاء الدول الاعضاء ، اي في نطاق القانون الاتحادي العام؟

شخصية الجامعة ازاء الدول الاعضاء :

يلاحظ اولا ان جامعة الدول العربية تتمتع بشخصية مدنية كاملة الاهلية ، وهي بهذا الوصف تتمتع بذمة مالية مستقلة عن ذمم الدول الاعضاء ، فتنص المادة الاولى من اتفاقية امتيازات وحصانات الجامعة العربية على حقها في التملك والتعاقد والتقاضي . وثمة نصوص متفرقة تفيد بما لا يدع مجالا للشك بان الجامعة تتمتع بالشخصية القانونية ازاء الدول الاعضاء . فالامين العام « ينوب » بحكم المادة الاولى من النظام الداخلي للامانة العامة ، عن الجامعة فيما يتخذه من اجراءات في حدود الميثاق وقرارات المجلس . ومن اركان النيابة ان يكون كل من المنيب والنائب شخصاً قانونياً . وتخول المادة ٣٨ من اتفاقية امتيازات وحصانات الجامعة، جامعة الدول العربية عقد اتفاقات اضافية لتنظيم تطبيق احكام الاتفاقية بلاد الدول الاعضاء ، كما تخولها المادة ٨ من ملحق الاتفاقية الاتفاق مع حكومة دولة المقر على انشاء وتشغيل محطات لاسلكية للارسال والاستقبال .

واذا صرفنا النظر عن هذه النصوص ، وبحثنا عن توافر اركان الشخصية القانونية

كما حددناها ؛ رأينا ان للجامعة اهدافها الخاصة التي وجدت من اجل تحقيقها ، كما ان لها هيئاتها الخاصة . ولا يمكن النظر الى المجلس واللجان الدائمة كهيئات تابعة للدول الاعضاء لا للجامعة ، لانها انما تستمد اختصاصاتها من الميثاق مباشرة لامن هذه الدول . يضاف الى ذلك ، بالنسبة للجان ، ان رؤساءها يعينون من المجلس مباشرة ، ويتناولون مرتباتهم من الجامعة لامن الدول الاعضاء . وينطبق هذا القول على الامانة العامة . فالامين العام يعين باغلبية الثلثين ، ومعنى ذلك انه قد يعين بالرغم من تصويت بعض الدول ضد تعيينه، وهو يمثل مع ذلك « الجامعة » كلها ضمن الحدود المقررة ، ولا يمثل اية دولة من الدول على انفراد .

كما ان للجامعة ارادتها الخاصة ، ولا يمكن ان تعتبر ارادة الدول الاعضاء ، ولو ان هذه هي التي تعين ممثليها الذين يتكون منهم المجلس وتزودهم بتعليمات يسألون امامها عن تنفيذها ، لان هذه التعليمات لا تقيد الا كل وفد على حدة . اما المجلس نفسه ، ككل ، فغير مقيد بها ، وهو غير مسؤول عن اتباعها ازاء اية دولة ما دام يعمل في حدود الميثاق .

ولكن الاستاذ موسكيلي يذهب مذهبا آخر . فهو يعلق اهمية كبرى على كيفية صدور القرارات . فاتباع مبدأ الاغلبية يثبت في نظره وجود ارادة خاصة للجامعة . اما الاخذ بمبدأ الاجماع فيعني ان الجامعة لا ارادة خاصة لها « اذ تندمج هذه الارادة بارادة الدول الاعضاء » . ويبدو لنا انه من الصعب التسليم بهذا الرأي . صحيح ان صدور القرارات بالاغلبية من شأنه ان ييسر الكشف عن ارادة الجامعة الذاتية ، لان ارادتها يمكن ان تناقض في هذه الحالة ، في أي وقت ، ارادة احدى الدول الاعضاء على الاقل ، مما يعني انها ارادة متميزة من ارادة الدول الاعضاء .

ولكن من الخطأ ان نعلق كل هذه الاهمية على التفرقة بين مبدأ الاجماع والاغلبية، لانها ليست الا مسألة اجراءات لاتتعدى تحديد الطريقة التي تصدر بها قرارات الهيئة لتكون صحيحة . واذا كان المجلس يصدر مبدئيا قراراته بالاجماع فان الامر لم يكن يختلف عن ذلك في عصبة الامم ، ولم يذهب احد — فيما نعلم — ممن يسلمون بفكرة الشخصية القانونية الى انكارها على العصبة لهذا السبب . يضاف الى ذلك ان ارادة المجلس تظهر واضحة في القرارات التي يتخذها بالاغلبية ، فهي واجبة الاحترام . صحيح ان نطاق الاغلبية ضيق ، ولكنه كاف لاثبات وجود هذه الارادة ، لانها اما ان تكون اولاتكون . ومهما يكن فان الجدل حول وجود ارادة ذاتية للجامعة من عدمه اصبح غير ذي موضوع بعد عقد معاهدة الدفاع المشترك التي المعنا اليها . فهي تقيم ، تحت

اشراف مجلس الجامعة ، مجلسا للدفاع المشترك يتألف من وزراء الخارجية والدفاع،وتصدر قراراته باكثرية ثلثي الدول الأطراف ، ويكون القرار ملزما لجميع الدول المتعاقدة . يضاف الى ذلك كله أن مدة نفاذ قرارات المجلس ليست مرهونة بوجود الدول الاعضاء التي صوتت عليها . فهذه قد ينسحب بعضها ، وقد ينضم الى الجامعة اعضاء جدد . ولكن القرارات تبقى قائمة في الحالين ، محتفظة بكامل قيمتها القانونية ، ولا تنسخها الا قرارات اخرى تصدر بالطرق المقررة وتحل محلها اوتعدلها . وهذه الظاهرة لايمكن تفسيرها الا اذا كانت الجامعة تتمتع بشخصية قانونية متميزة عن الدول الاعضاء .

واخيرا فان الجامعة تتمتع بحقوق وعليها التزامات مختلفة . من بينها ان تصون استقلال الدول الاعضاء وسيادتها ، وان تسعى الى خير العرب بصورة عامة ، وتعمل على تحريرهم واستكمال استقلالهم . ومن مهامها توثيق العلاقات بين الدول الاعضاء فيها ، ولها في هذه الشؤون ان تتخذ قرارات يقوم على الدول الاعضاء واجب تنفيذها ،كما انها تملك طرد الدولة التي لاتقوم بواجباتها بوصفها عضوا في الجامعة ، وان توجه ضدها الجزاء العسكري فيما اذا اعتدت على دولة اخرى عضو في الجامعة .

قد يقال بان هذه الاختصاصات ليست الا اختصاصات مفوضة تباشرها الجامعة باسم الدول الاعضاء ، ولا تفيد ان لها شخصية قانونية . ولكن هذا المنطق لايستقيم مع نفسه ، أوليس الوكيل نفسه شخصا قانونيا ، يعمل باسم شخص قانوني آخر ؟ فالوكيل لايمكن ان يكون الا شخصا طبيعيا اومعنويا . والحقيقة ان الدول الاعضاء بتنازلها للجامعة عن بعض الاختصاصات وبالتزامها بتنفيذ قرارات المجلس في هذه الشؤون فانها، بهذا العمل وحده ، قد عهدت الى الجامعة بحق مباشرتها باسمها الخاص . ولهذالايمكن اعتبار الجامعة وكيلة عن الدول الاعضاء في مباشرتها هذه الاختصاصات .

ولا نجد بعد هذا كله بدا من الاعتراف للجامعة بالشخصية القانونية في نطاق القانون الاتحادي العام ، اي ازاء الدول الاعضاء .

الشخصية الدولية للجامعة العربية :

يشترط الاستاذ موسكيلي للاعتراف للجامعة بالشخصية القانونيـــة ان تصدر قراراتها بالاغلبية ، وان تكون ملزمة لكل الدول الاعضاء فيها ، بما فيها تلك التي صوتت ضدها ، وان تتمتع باختصاصات دولية ، وهو ينكر بالتالي على الجامعة تمتعها بالشخصية القانونية ، سواء في نطاق القانون الاتحادي العام او القانون الدولي العام ، ولا يعترف

لها الا بشخصية كامنة ، يمكن ان تنتقل الى حيز الوجود اولا ، تبعا لتطورها المقبل . ويذهب الفقيه سيل والاستاذ مجيد خدوري الى ابعد من ذلك فينكران عليها الشخصية الدولية اطلاقا بحجة إن الدول الاعضاء تحتفظ بكامل سيادتها ، وشخصيتها الدولية التامة المستقلة . ويضيف سيل الى ذلك :

« ليس من اتحاد (فيدرالزم) ولا بد من الاعتراف . وهذا الاعتراف يمكن ان يكون ضمنيا اذا توصل الامين العام فعليا الى التفاوض مع دول مختلفة ووافقت هذه الدول على التفاوض معه بوصفه امينا عاما للجامعة ، او اذا حصل على قبول بتمثيل الجامعة لدى الامين العام للامم المتحدة ، ويمكن خلال فترة من الزمن ان يحصل اعتراف صريح . فثمة اذن حركة اونزوع الى تنظيم فيدرالي » .

وقبل ان نبين وجهة نظرنا يجدر بنا ان نعلق على موقف الاستاذ سيل الغريب .

فهو من غلاة انصار المدرسة الموضوعية في القانون ، والاعتراف في نظره لايمكن ان يكون الا كاشفاً للشخصية لا منشئاً لها ، وبالتالي يصح التساؤل علام يمكن ان ينصب الاعتراف ما دام ينكر وجود اختصاصات ذاتية للجامعة . ولعل سيل احس بما في موقفه من تناقض فتراجع عنه في طبعة لاحقة ، ونجده يتمشى مع منطقه حين يقول بعد انكار الاختصاصات الدولية ... « بحيث لا نرى على أي اساس يمكن ان يحصل اعتراف دولي بالجامعة » .

ولنتابع طريقنا بعد هذه المعترضة . رأينا إن للجامعة شخصية قانونية في نطاق القانون الاتحادي العام لا شك فيها . وهذا وحده يجيز لنا ان نستنتج ان لها ، من باب اولي ، الشخصية الدولية؛ لأن من اهدافها تنسيق سياسة الدول الاعضاء وصيانة استقلالها وسيادتها والنظر في مصالح العرب وشؤونهم . وهذه كلها اغراض تتعدى حدود الدول العربية الاعضاء . والسعي الي تحقيقها يقتضي إن تمارس الجامعة نشاطاً في الميدان الدولي . ولئن كانت الشخصية الدولية هي التي تملك اختصاصات دولية ، فانه يترتب علينا ان نحدد اختصاصات الجامعة العربية .

تملك الجامعة العربية في نظرنا حق الحرب ، خلافاً لرأي الاستاذ موسكيلي ومن تابعه من الكتاب . ذلك ان الميثاق يخول المجلس في حالة وقوع اعتداء على احدى الدول الاعضاء ان يقرر التدابير اللازمة لدفع هذا الاعتداء.... وقد يكتفي المجلس بتقرير قطع العلاقات الاقتصادية والسياسية مع الدولة المعتدية ، كما حصل فعلا ، ولكن ليس ما يمنع المجلس من ان يقرر دفع القوة بالقوة إذا اقتضت الظروف ذلك

ومعنى ذلك إن للمجلس ان يعلن الحرب . وعلى الدول الاعضاء – في هذه الحالة – أن تتخذ الاجراءات القانونية لتنفيذ هذا القرار وفق انظمتها الدستورية ... فالجامعة تملك حق الحرب اذن ، ولكن علينا ان نقيدها بالحرب الدفاعية فقط ، شأنها شأن عصبة الأمم .

وتملك الجامعة حق عقد المعاهدات ضمن الحدود التي رسمها الميثاق . فالميثاق يجعل من اختصاص المجلس تقرير وسائل التعاون مع الهيئات الدوليـة التي تشرف على صيانة الامن والسلام . ومن ضمن اوجه التعاون – وفقاً لميثاق الامم المتحدة – أن تضع الدول الاعضاء تحت تصرف مجلس الامن قوات عسكرية وتسهيلات مختلفة . ويترتب على مجلس الامن ان يبرم معاهدات مع الدول الاعضاء في الامم المتحدة أو « مجموعات » منها تحدد عدد هذه القوات ونوع التسهيلات المشار اليها . كذلك ينص ميثاق الامم المتحدة على حق لجنة اركان الحرب في انشاء لجان فرعية اقليمية ، اذا خولها مجلس الامن ذلك ، وبعد التشاور مع المنظمات الاقليمية ذات الشأن . ومن الواضح ان هـذه المشاورات قد تنتهي بعقد اتفاقات تنظم اختصاص اللجان الاقليمية المشار اليها وحدود عملها . ففي هاتين الحالتين يمكن تصور قيام الجامعة بعقد معاهدات واتفاقات من غير أن تخرج عن الحدود المرسومة لها . وكذلك في الحالات غير السياسية والعسكرية . وقـد عقدت جامعة الدول العربية فعلاً اتفاقات مختلفة مع المنظمات الدولية المتفرعة عن هيئة الامم المتحدة ، كمنظمة الاونسكو عام ١٩٥٦ ، ومنظمة الصحة العالمية عام ١٩٦٠ .

ونجد ميادين اخرى يمكن للجامعة ان تعقد فيها اتفـاقات . فالميثاق يفرض على الجامعة النظر في شؤون البلاد العربية ومصالحها ، والعمل على تأمين مستقبلها بكل ماتهيئه الوسائل السياسية من اسباب . وعلى هذا الاساس يمكن تصور عقد اتفاقات تتولى الجامعة بمقتضاها الوصاية على بلد عربي لم يستكمل اسباب سيادته ، او بشأن وضع النـازحين الفلسطينيين .

وتتمتع الجامعة بالاضافة الى ذلك بحق التمثيل ، ولو ان الميثاق لم ينص على هـذا الحق صراحة . لقد استنتج بعض الباحثين من سكوت النص ان الجامعة لاتملك هذا الحق ، مستندين الى ان الدول الاعضاء ذات سيادة ، وهي لم تترك للجامعـة الا اختصاصات معينة ، فيجب والحالة هذه الاقتصار عليها والتضييق في تفسيرها . ولكننا نرى – على الضد من ذلك – أن الدول الاعضاء بانشائها الجامعة رسمت لها أهدافاً معينة ، ومادام حق

التمثيل لن يمارس الا في حدود الميثاق فانه لن يمس سيادة الدول الاعضاء في شيء لانه لن يرتب عليها التزامات جديدة لتحتاج الى نص صريح . ومجلس الجامعة من غير شك ان يلجأ الى استخدام هذا الحق اذا رأى ضرورة له لتحقيق المهمة المكلف القيام بها . ونحن نعلم ان ميثاق عصبة الامم لم يذكر شيئاً عن حق العصبة في التمثيل ، ولكن الشراح لم يعدم بينهم من اعترف لها بهذا الحق رغم سكوت النص ، كما ان كثيراً من الدول الاعضاء جرت على ارسال مندوبين دبلوماسيين لها الى العصبة .

ومما يقوي عقيدتنا فيما نذهب اليه ان الميثاق نص على ان يكون الامين العام بدرجة سفير ، والامناء المساعدين بدرجة وزراء مفوضين ، ومن الواضح ان هؤلاء ليسوا موظفين في السلك الدبلوماسي لأية دولة من الدول الاعضاء ، وان الغرض من جعل الامين العام بمرتبة سفير هو تمكينه من الاتصال بالسلطات الدبلوماسية الاجنبية المختلفة . وهو يستطيع بذلك ان يقوم بدور كبير كحلقة اتصال بين الجامعة والدول الأجنبية ، وقد نص في النظام الداخلي صراحة على انه « ينوب » عن الجامعة في حدود الميثاق وقرارات المجلس . اضف الى ذلك ان الميثاق نص ، كما رأينا ، على تنظيم تعاون الجامعة مع الهيئات الدولية ، وهذا التعاون يقتضي حتماً ان تدخل الجامعة عن طريق بعض هيئاتها في علاقات مع هذه الهيئات الدولية ، وهذا يتضمن التمثيل الدبلوماسي . وقد مارست الجامعة فعلا هذا الحق ، فارسلت مندوبين عنها في مهام عدة الى دول اجنبية ، واستقبلت مندوبين عن دول اجنبية ، كما ان الدول الاعضاء عينت بعثات دائمة لدى الامانة العامة على رأسها سفراء ووزراء مفوضون . كل هذا يفيد تمتع الجامعة بالشخصية الدولية . ومن حقنا اخيراً ان نتساءل عما إذا كانت هذه الشخصية معترف بها دولياً . ان مسألة الاعتراف لاتستحق كل الاهمية التي تعلق عليها . فاثر الاعتراف لايمكن ان يكون الا كاشفاً لكيان الجامعة الذي لايتوقف بحال من الاحوال على وقوع الاعتراف . فالاعتراف في جوهره ليس الا عملا سياسيا من الحكومات الاخرى او الهيئات الدولية يفيد رغبتها في الدخول في علاقات مع الشخص الدولي المعترف به وفق القواعد المعمول بها في القانون الدولي العام .

ومهما يكن من أمر فان الاعتراف شبه الصريح بالجامعة قدم من قبل هيئة الامم المتحدة بموجب خطابات متبادلة بين الامينين العامين للمنظمتين ، كما ان الامين العام يحضر بصفة « مراقب » جلسات الجمعية العامة للامم المتحدة ، بمقتضى قرارها الصادر بتاريخ ٢٦ / ١٢ / ١٩٦٠ .

مركز الجامعة بين اشخاص القانون الدولي العام :

قلنا إن الجامعة تتمتع بالشخصية الدولية . ولكن في أية طائفة من اشخاص هذا القانون يمكن وضعها ؟ من الواضح إن هذا التكييف ليس الا نظرية فقهية تقوم على اساس تفسير الميثاق ، لأن قواعد القانون الدولي اذا كانت تحدد اركان الدولة فانها لاتحدد لنا ماهية الاتحادات الدولية . وسنبدأ بتحديد مركز الجامعة سلبياً في بادىء الامر ، ونعني بذلك إن نستبعد مالا تتصف به ، لتمهيد سبيل البحث عن ماهيتها ومركزها .

ان الجامعة ليست اتحاداً ادارياً دولياً ، وان كانت هذه الاتحادات توجدها معاهدات جماعية تنشىء تنظيماً معيناً ، وتحدد لها اوجه نشاطها . لان مايميز هذه الاتحادات إبتعادها عن كل نشاط سياسي . اما الجامعة فهي وان كانت تقوم ببعض اوجه النشاط الذي تقوم به الاتحادات الادارية الدولية ، الا ان ميدان نشاطها اوسع بكثير ، وهو يشمل بصورة خاصة المسائل السياسية ، بل ان عناية الجامعة بهذه المسائل الاخيرة هي التي تكسبها خصائصها المميزة .

والجامعة ليست مجرد تحالف عسكري منظم . فالحلف انما يعقد لمدة محدودة ، وصفة الدوام غريبة عنه . كما ان المقصود من الحلف مواجهة حالة خاصة لاتتعدى عادة الكفاح ضد عدو محتمل ، ومعاهدة التحالف لاتكون عادة مفتوحة لانضمام دول اخرى غير الموقعة عليها . بينما تلك الجامعة منظمة دائمة لها هيأتها الخاصة . وهي مفتوحة لانضمام الاقطار العربية التي تسترد حريتها واستقلالها ، واذا كانت تستهدف حماية الدول الاعضاء فليس هذا هو غرضها الوحيد كما هو الحال في الحلف ، بل انها تتعدى هذا الغرض لتسعى الى توثيق العلاقات بين دولها وتحرير الاقطار العربية غير المستقلة والتعاون مع الهيئات الدولية الاخرى .

والجامعة ليست دولة فوق الدول الاعضاء . فأغلبية الشراح تتفق على ان السيادة هي ضابط التفرقة الذي يميز الدولة من غيرها . والسيادة هي الصفة التي بموجبها لايمكن ان تلزم الدولة الا بارادتها ، وذلك في حدود المبادىء العليا للقانون ووفقاً للاهداف العامة التي تسعى الى تحقيقها . ودول الجامعة تحتفظ بسيادتها ، بل انها جعلت صيانة هذه السيادة من اغراض الجامعة ، وهي غير مقيدة الا في حدود الميثاق . والميثاق ماهو الا اتفاق دولي يخضع بهذه الصفة لقواعد القانون الدولي ، ولم يوضع كدستور داخلي .

وتتجلى فكرة السيادة في اتباع مبدأ الاجماع في اتخاذ القرارات ، وفي تعهد كل دولة باحترام نظام الحكم في الدول الاعضاء الاخرى ، وفي تناوب ممثليها رئاسة المجلس، كما ان التعاون بينها في الشؤون المنصوص عليها في الميثاق يكون عن طريق معاهدات دولية فيما بينها ، وتتجلى باجلى مظاهرها في حق الدول الاعضاء في الانسحاب من الجامعة، كما انها تظهر في توزيع الاختصاصات بين الجامعة واعضائها ، فهؤلاء وحدهم يملكون اختصاص المبدأ ، بينما لاتملك الجامعة الا ماعهد اليها به الميثاق .

والسيادة غير قابلة للتجزئة بطبيعتها . واذا كانت الدول الاعضاء تحتفظ بسيادتها فمعنى هذا ان الجامعة لاتتمتع بالسيادة . وبهذا ننفي عنها صفة الدولة . فالجامعة ليست دولة جديدة فوق الدول ، واسمها كاف في حد ذاته لاستبعاد هذه الفكرة . فهي ليست اذن الا اتحاداً دولياً يطلق عليه بالاصطلاح الفقهي الالماني Staatbund لتمييزها من Bundstaat التي توجد فيها دولة تسمو ارادتها على ارادة الاعضاء . ويترتب على ذلك ان الدول تحتفظ بشخصيتها الدولية ، كما ان رعايا الجامعة هم الدول لا الافراد الذين يكونونها ، ولهذا فقرارات الجامعة لاتلزم رعايا الدول الاعضاء الا بتوسط هذه الدول، فلا نجد انفسنا ازاء جنسية واحدة بل ازاء عدد من الجنسيات بعدد الدول الاعضاء ،كما ان الحرب التي تقوم بين الدول الاعضاء تعتبر حرباً دولية لا اهلية .

ان جامعة الدول العربية اقرب ماتكون في نظرنا الى الاتحاد الدولي Confédération d'Etats .ولمعرفة خصائص هذه الاتحادات نورد بعض التعاريف . يرى Le Fur ان الاتحاد الدولي هو : « اتحاد دول ذات سيادة له سلطة مركزية تتمتع بالشخصية القانونية ،وفيه هيئات دائمة » ، ويعرفه Jellinek بانه : « اتحاد دول مستقلة على وجه الدوام لغرض الدفاع الخارجي عن اقليم الاتحاد وتأمين السلم الداخلي بين الدول المتعاهدة ، كما قد يستهدف اغراضاً أخرى . ولابد للاتحاد –لتحقيق مهمته– من تنظيم دائم » .

ويعرفه اوبنهايم بانه « ارتباط عدد من الدول تامة السيادة – عن طريق معاهدة دولية –بقصد صيانة استقلالها التام –الخارجي والداخلي – في اتحاد له هيئاته الخاصة ، ويتمتع ببعض السلطة على الدول الاعضاء ، لاعلى مواطني هذه الدول » .

واذا ماقارنا الخصائص التي تقوم عليها هذه الاتحادات نجد ان جامعة الدول العربية تجمع كل خصائصها . فالجامعة اذن اتحاد دولي . ولكن هذا لاينفي انها تختلف كثيراً عن بعض الاتحادات المعروفة ، فهي اتحاد هزيل اذا ماقورنت بما كان عليه الاتحاد الجرمني لعام ١٨١٥ ، ومن باب اولى الاتحاد الامريكي لعام ١٧٧٨ . فاختصاصات الاتحاد

الامريكي في الشؤون الدوليه كانت تفوق اختصاصات الدول الاعضاء ، بل انه لم يبق لهذه الاخيرة الا ظل خفيف من هذه الاختصاصات كلها . ومها يكن من امر هذه الفروق فانها لاتبدل من طبيعة الجامعة في شيء . والاتحادات التي عرفها التاريخ بينها اختلافات كبيرة جداً ، فقد تضعف الروابط وتتراخى في بعضها بحيث تقترب من التحالف العادي ، وقد تقوى العلاقات وتشتد في بعضها الآخر بحيث يتعذر تمييز الاتحاد الدولي من الدولة الاتحادية .

الجامعة منظمة اقليميـــــة :

واذا مانظرنا الى الجامعة من خلال ميثاق هيئة الامم المتحدة ، نجد انها تقوم في منطقة جغرافية معينة تؤلف وحدة متصلة الاجزاء ، تجمع بين دول تربطها أشد الروابط واوثقها ، من وحدة اللغة والاصل والدين والتقاليد ووحدة المصير ، يجمعها الماضي بآلامه ويحركها المستقبل بآماله ، تستهدف حفظ السلم والامن في الوطن العربي ، وتسهم بذلك في صيانة السلم والامن في العالم ، لان السلم وحدة لاتتجزأ . وبذلك تلتقي الجامعة العربية — بتحريمها الحرب بين الدول الاعضاء وتنظيمها فض المنازعات بصورة سلمية وقمــع كل اعتداء يقع على احدى الدول الاعضاء — بالحركة السلمية العالمية وتدعمها وتســايرها . وبذلك تلتقي اهداف الجامعة ومبادؤها مع اهداف ميثاق الامم المتحدة والمبادىء التي يقوم عليها . ولما كان الميثاق يفرق بين الاتفاقات والمنظمات الاقليمية فان الجامعة — إذ تتمتع بالشخصية الدولية — تعتبر منظمة اقليمية . وقد تم اعتراف هيئة الامم المتحدة الصريح بالصفة الاقليمية للجامعة العربية ، وذلك في سياق قرار اتخذته الجمعية العامة بشأن لجنة اقتصادية للشرق الاوسط ، وبموجب مذكرات متبادلة بين الامينين العــامين للهيئتين اتفق فيها على صور التعاون ، وبالاتفاقات العديدة المعقودة بين الجامعة والوكالات المتخصصة المتفرعة عن الامم المتحدة .

ونخلص من ذلك الى ان الجامعة ذات طبيعة مزدوجة . فهي من جهة اتحاد دولي يستهدف اغراضاً قومية ، وهي من جهة اخرى منظمة اقليمية بالمعنى المقصود في ميثاق الامم المتحدة . والعلاقة بين المظهرين وثيقة وحتمية ، هي علاقة الوسيلة بالغاية . فالجامعة في سعيها الى بلوغ اهدافها القومية يجب أن تتجنب كل مامن شأنه أن يعرقل سير أعضائها نحو الهدف المشترك ، وأخطر هذه العراقيل — التي قد تصل الى حد تهديد كيان الجامعة ووجودها — امكان لجوء الدول الاعضاء الى القوة فيما بينها لتغليب ارادتها .

النشاط القانوني:

لم يرسم الميثاق مجالا محددا تمارس فيه الجامعة نشاطها القانوني . وبالتالي فانه اختصاصها واسع يتحدد بالاغراض التي التي على عاتق الجامعة بلوغها . ولهذا السبب بالذات خول الميثاق المجلس — كمبدأ عام — سلطة اتخاذ قرارات ملزمة للدول الأعضاء ، كما أنه نظم سلطة المجلس في أحوال معينة . وقد اقتضى تباين اغراض الجامعة وجود تباين في طبيعة القرارات وقوتها الالزامية ، فالى جانب سلطة المجلس في اتخاذ قرارات ، نجده مختصاً باصدار توصيات، ومنها على وجه الخصوص اختصاص المجلس في شؤون التشريع . ورغبة منا في حصر الموضوع ، فاننا سنقتصر هنا على النشاط القانوني للجامعة الذي يتجلى في شكل اتفاقات دولية ، علماً بأن هذه الاتفاقات لاتستغرق نشاط الجامعة كله على نحو ماقدمنا ، فالمقاطعة العربية لاسرائيل واجهزة المقاطعة تستند الى قرار اجماعي من المجلس، كذلك شأن نشاط الجامعة الاعلامي واجهزته .

نصت المادة الثانية من الميثاق على أن من اغراض الجامعة تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً —بحسب نظم كل دولة منها واحوالها — في الشؤون الآتية : الشؤون الاقتصادية والمالية، وشؤون المواصلات، وشؤون الثقافة ، وشؤون الجنسية والجوازات وتسليم المجرمين ،والشؤون الاجتماعية ، والشؤون الصحية .

وقضت المادة الرابعة بتأليف لجنة خاصة لكل من الشؤون المبينة في المادة الثانية، تختص بوضع قواعد التعاون ومداه، وتكون اعمالها في المهام المرسومة لها تحضيرية،تصاغ على صورة مشروعات اتفاقات تعرض على المجلس لاقرارها . واقرار هذه الاتفاقات هو جوهر الاختصاص التشريعي الدولي الذي تمارسه مجلس الجامعة .

وقد يتبادر الى الذهن ان موافقة المجلس على مشروع بالأجماع تجعل الدولة ملزمة بتنفيذه وفق نظمها الدستورية . ومقتضى ذلك الاعتراف للمجلس بسلطة تشريعية عامة، وليس ما يمنع مبدئيا من تخويل السلطة المركزية هذا الاختصاص لأنه لا يتنافى مع طبيعة الاتحادات الدولية . وحسبنا ان نشير هنا الى ميثاق الاتحاد الجرمني لعام /١٨١٥/ الذي كثيراً ما يتحدث عن « القوانين الاساسية والقوانين العادية الاتحادية » ، وكذلك ميثاق الاتحاد الامريكي لعام / ١٧٧٨ / . غير ان المادة الرابعة من الميثاق قاطعة في عدم امكان ذلك . فهي تقضي بعرض مشروعات الاتفاقات على المجلس (للنظر فيها تمهيداً لعرضها على الدول المذكورة) ، والنظر فيها لايفهم منه اصدار قرار يقترن بقوة ملزمة ، ويقتصر

اختصاص المجلس اذن على اصدار توصيات لاتنتج التزامات قانونية ، بل قواعد ذات قوة ادبية وسياسية فقط ، وشأن الجامعة في ذلك شأن عصبة الامم سابقا ، وهيئة الامم المتحدة حاليا .

وتقضي الاجراءات المتبعة في هذا الشأن بان يمر المشروع في مراحل ثلاث : يناقش المجلس المشروع المقدم اليه من اللجنة ، ويقر نصه النهائي بالاجماع ، ثم يوقع المشروع مندوبون يعينون لهذا الغرض ويزودون بوثائق التفويض اللازمة ، ويرسل المشروع بعد ذلك إلى الدول الاعضاء للتصديق عليه . وقد سبق لنا في عام / ١٩٤٨ / ان وجهنا النقد الشديد الى هذا الاسلوب الذي نعجز عن فهم الحكمة منه ، اذ لامسوغ له من القانون الدولي ، ولا مبرر من الوجهة العملية . فاقرار المجلس المشروع فيه كل الغناء عن توقيع مندوبين يعينون لهذا الغرض ، وليس في ذلك اي تعريض لسيادة الدول بالزامها بتنفيذ مشروعات لا ترتضيها ، لان هذه الدول لن تلتزم بالاتفاقات إلا بعد تصديق سلطاتها المختصة عليها ، وهي غير ملزمة بالقيام باجراءاته .

الاتفاقات التي اقرها المجلس :

اقر مجلس الجامعة منذ قيامها حتى الآن ، حوالي ثلاثين اتفاقية تغطي المجالات التالية : الأمن الجماعي والوحدة الاقتصادية والوحدة الثقافية والمواصلات وشؤون العمل .

ولن نستطيع ضمن الصفحات المخصصة لهذا المقال ، ان نتناول بالتحليل كلاً من هذه الاتفاقات . وحسبنا ان نلاحظ ان ممثلي الدول اقروا مشروعات الاتفاقات هذه في مجلس الجامعة ، وان كثيراً من الدول الاعضاء فوضت مندوبيها بتوقيعها ، وبالرغم من ذلك نجد ان اكثرها لم يصدق من اغلبية الدول ، كما نجد ان معظم الاتفاقات النافذة ما تزال من حيث التطبيق حبراً على ورق . وهذه الملاحظة الشكلية ان دلت على شيء فانما تدل على ان النشاط القانوني للجامعة — وهو المعول عليه في تحقيق كل اهداف الجامعة غير السياسية — يتعثر ، ولا يمكنه مع استمرار الاوضاع الراهنة بلوغ الاهداف التي رسمها له الميثاق . وحسبنا للاقتناع بأن الجامعة تسير في طريق مسدودة ، أن نشير بايجاز الى وضع التعاون الاقتصادي دون حاجة الى تبيان اهمية التعاون الاقتصادي في تحقيق أهداف الجامعة . فنلاحظ ان الجامعة قامت عام / ١٩٤٥ / ولم تتوصل الا في عام / ١٩٥٣ / الى خطوات جزئية لم يقدر لها التنفيذ الكامل ، وفي عام / ١٩٥٦ / — أي بعد أحد عشر عاماً من قيامها — تم وضع مشروع الوحدة الاقتصادية ، وعرض على مجلس الجامعة عام / ١٩٥٧ / ولم يقر الا عام /١٩٦٢/ . ووقعت الاتفاقية سبع دول من اصل

ثلاث عشرة دولة عضواً في الجامعة ، ولم تصدقه الا خمس منها ، ولم توضع مرحلته الاولى في التنفيذ (المتعلقة بانشاء السوق العربية المشتركة) الا بقرار من مؤتمر القمة العربي الثاني (آب ، اغسطس ، ١٩٦٤) . وقد تساءلنا في بحث سابق حول السوق العربية المشتركة (١) ما اذا كان يقدر لهذه السوق ان تنجح ، وكان جوابنا آنذاك : « هذا مانرجوه ؛ غير ان الملاحظات التي سبق ان ابديناها تدعونا الى التحفظ الشديد . ذلك انه لابد أولاً ان نحدد الهدف الذي نريد بلوغه . ومتى تم الاتفاق على الهدف سهل سلوك السبل الملائمة . فالوحدة الاقتصادية مظهر أساسي من مظاهر الوحدة السياسية اي الدولة الواحدة ذات السيادة . وكما أن الوحدة السياسية لاتكون تامة الا اذا اشتملت على الوحدة الاقتصادية ، فان الوحدة الاقتصادية تبقى متراخية او يكون مصيرها الانحلال اذا لم تدعمها الوحدة السياسية . هذا هو درس التاريخ . ومهما حاولنا استبعاد الجانب السياسي فان العوامل السياسية ستطل برأسها حتما ، لأنها ليست في النتيجة الا التعبير عن القوى الاقتصادية والاجتماعية المتفاعلة في كل دولة : فالسوق المشتركة تقضي بتوحيد السياسات الجمركية والنقدية والتجارية والمالية. كما أن هذه السوق لاجدوى منها ان لم يتم التخطيط لتحقيق نوع من التكامل بين الاقطار العربية المختلفة في كل المجالات الاقتصادية ، أي انه لابد من تغيير البنيان الاقتصادي القطري الذي وضع اساسه مستعمر اجنبي لخدمة مصالحه الخاصة . وهاتان العمليتان تمسان مباشرة مصالح قائمة يمكن ان تهدد الوحدة الاقتصادية العربية بالمصير الذي آل اليه الاتحاد الجمركي السوري اللبناني عام ١٩٥٠ »

خاتمة :

لقد فشلت الجامعة العربية حتى الآن . فشلت في معركة فلسطين ، وفشلت في كل القضايا والمواقف العربية الحاسمة . فهذه كلها حلت او مازالت تحل خارج نطاق الجامعة . وينطبق على الجامعة الوصف الذي اطلقه بعض المفكرين الالمان على الاتحاد الجرمني لعام ١٨١٥ من انه كان «مثار أسى وألم للالمان ، وموضع هزء الاجانب وسخريتهم ». ولسنا نلقي مسؤولية هذا الفشل على عاتق الجامعة ، فجامعة الدول العربية ماهي الا مرآة تنعكس عليها اوضاع الحكومات العربية الاعضاء في مجلس الجامعة ، كما اننا لانلقي اللوم على ماينطوي عليه الميثاق من نقاط ضعف — وما اكثرها — لأن النية الحسنة والارادة الحازمة

(١) نشر في العدد /٤٨/ — شباط ١٩٦٦ — من مجلة (المعرفة) تحت عنوان (الاقتصاد العربي) .

كفيلتان بتجاوز هذه العقبات وعدم الوقوف عندها . ولكن المشكلة أعمق من ذلك بكثير ، إنها مشكلة الامة العربية نفسها .

فالأمة العربية تعاني تمزقاً بعيد الاغوار . وأهم مظاهر هذه الأزمة التجزئة والتخلف اللذان خلفهما الاستعمار . فالعصر عصر الثورة الصناعية الثالثة (الذرة والالكترون والحركة الذاتية) ، وعصر الفضاء ، وهو عصر الوحـــدات الكبيرة . وتطور العرب اقتصادياً واجتماعياً ومشاركتهم في الحضارة الانسانية رهن بوحدتهم السياسية . فهذه الوحدة ، اي قيام الدولة العربية الواحدة ، هي التي تفتح الآفاق لتجاوز التناقضات التي تهدر طاقات الجماهير العربية ، وتعبئتها للبناء والتقدم .

غـــير أن الحركة القومية العربية تلاقي مقاومة مزدوجة : مقاومة من الداخل ومقاومة من الخارج . فالدول العربية القائمة كلها وليدة التجزئة التي فرضها الاحتلال الاجنبي ، ورسم حدودهـــا . وقامت فيها ، تبعاً لذلك ، مصالح اقتصادية وامتيازات اجتماعية نمت في ظل اوضاع التجزئة والتخلف ، وارتبط كيانها باستمرارها . هـــذه العوامل الاقتصادية والاجتماعية هي القوى المعادية للوحدة، وحامية التخلف في الوطن العربي . ثم ان التحرر السياسي للدول العربية يتفاوت في العمق والشمول . واذا كانت الجيوش الاجنبية قـــد جلت عن معظم اجزاء الوطن العربي ، فان مصالح الاستعمار بوجوهها العديدة ، لاسيما البترولية والتجارية ، ماتزال موجودة . فشركات البترول ، وهذا مثل واضح ، تفضل مواجهة وحدات سياسية صغيرة تستطيع بسهولة السيطرة على توجيه دفـــة الحكم فيها بصورة او بأخرى . ولئن كانت عائدات النفط تكون ١٠٠٪ من ميزانية بعض الدول العربية ، واحياناً من دخلها القومي ، فهل يتصور ان تستطيع مثل هذه الحكومة ، مهما خلصت نية الحكام ، الخروج على ارادة هذه الشركات المدعومة بدولها العظمى ؟ أمـــا الحكام السياسيون فيندفعون في حماية الاتجاه الاقليمي وتعزيزه حفاظاً على مراكزهم ، وهم في حقيقتهم حمـــاة للمصالح الاقتصادية والاجتماعية الاقليمية والمصالح الاستعمارية الخفية ،يعملون بتأثير هذه القوى السلبية الداخلية والخارجية ، والتناقضات الشخصية والعائلية ، والخوف المسيطر عليهم من أن يؤدي اي تطور جدي نحو الوحدة الى المساس بمراكزهم . وقد ازداد هذا الخوف بعد انتشار الوعي بأن القضاء على التخلف يقتضي تمهيد السبيل للنمو الاقتصادي بالغاء العـــلاقات التي تشل التطور

كالاقطاع وكتحرير الفلاحين وتعبئة الادخار القومي عن طريق قطاع عام يقود عملية التنمية ويحقق التطور الاقتصادي والعدالة الاجتماعية .

وينطبق هذا الحكم على النظم السياسية الثورية نفسها ان بقيت حبيسة المنطق الاقليمي . فمجابهة القوى اللاوحدوية والاستعمارية تفرض عليها تحقيق وحـدة الحركات القومية العربية . غير ان شهوة الحكم والانفراد به قد تتسلط على الحكام الجدد ، فتقوم طبقة حاكمة جديدة تتمسك بمراكزها وامتيازاتها . ولكن هذه النظم ستجد نفسها بعد حين في طريق مسدودة لأنها ستعجز عن تحقيق أية تنمية اقتصادية عميقة وجدية بسبب القيود التي يفرضها ضيق السوق الاقليمية .

هذا هو وضع الحكومات العربية الاعضاء في مجلس الجامعة . ولا عجب بعد هذا ان تكثر مشروعات ومؤتمرات وأحاديث الوحـدة بوجوهها المختلفة ، دون ان تقترن بنتيجة ايجابية ، والقصد منها تخدير الجماهير الشعبية التي تربط بحسها العفوي السليم بين التجزئة والتخلف والاستعمار ، وتحس ان طريق الخلاص هو القضاء على التجزئة تمهيداً للقضاء على التخلف وحماية تحرر العرب وتقدمهم .

إن وجود الأمة يشكل عاملاً اساسياً هاماً في التطور الوحدوي ، ولكنه يبقى في حد ذاته ، أياً كان عمقه وتحوله ، عاجزاً عن تحقيق الوحدة السياسية اي الدولة القومية . « فالدولة لم تكن قط من المعطيات ، تتحقق بوجود الاقليم او العرق او اي عامـل آخر ، انها تصنع وتشكل ، فهي بنيان يبنى . والسلطة ، بما تملك من قدرات على الاقناع والاكراه ، هي التي تحقق هذا البناء . فهي وحدها القادرة على أن تفجر من الوحدة الاجتماعية العفوية الوحدة السياسية والقانونية ، اي الدولة . صحيح ان الدولة تقوم في هذه الحالة على امة أسبق منها في الوجود ، يمكن ان تشكل وحدة عضوية اجتماعياً ، الا ان مصيرها الوحدوي يبقى معلقاً ما لم تتدخل في وقت معين ارادة قوية مستمرة فتشكلها وتخلق منها الدولة . ان السكان ، اي الامـة ، يكونون المادة التي تضفي عليها الدولة شكلها . وكما ان المادة تنزع الى الشكل ، كذلك الامة تتطلع الى الدولة . ولكنها لا تحقق غايتها الا بتأثير ارادات بشرية واعية ».

ولنتصور ، في نهاية المطاف ، ما كان يؤول اليه حـال المستعمرات الامريكية الثلاث عشرة ، والدويلات الالمانية ، لو انها لم تنتظم في وحدة قومية كبرى . لقد كان التنافس والصراع طابعها المميز ، وكانت الدول الكبرى تستغل اوضاعها التدخل بينها ، كما هي حـال الدول العربية الآن ، ولم تنتقل الى مرحلة التعاون والعمل البناء وتحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي الا بعد تكوينها الدولة الواحدة التي تجسد الوحدة القومية .

سياسة احمد جمال باشا في سورية

للدكتور توفيق برو

- ٢ -

جمال باشا حاكم بلاد الشام :

وصل جمال باشا الى دمشق على رأس الحملة التي جهزتها الدولة العثمانية لاقتحام قناة السويس واسترداد مصر من الانكليز بقيادته ، حاملا معه مرسوم تعيينه والياً عاماً على بلاد الشام بأجمعها وقائداً للجيش الرابع ، فأخذ في اصطناع سياسة اللين وتقريب الاحرار العرب منه مع معرفته بعدم ثقتهم بالاتحاديين - كما ذكر عزيز بك في مذكراته - ونفح بعض صحافييهم اعانة

مالية[1] ، وأخذ يتحبب اليهم ، منوهاً بأنه على استعداد لدعم مطالبهم القومية ومساعدتهم على تحقيقها ، وأن عليهم ان يعتمدوا عليه بدلا من الاعتماد على مساعدة الدول الأجنبية[2] — يريد بذلك ان يغمز من طرف خفي بتعاونهم مع الأجانب — وراح يشير في خطبه وتصريحاته الى ضرورة تعزيز الصلات الودية بين العرب والترك ، والى حسن نوايا الدولة العثمانية نحو البلدان العربية ، فوقعت هذه التصريحات في نفوس العرب موقعاً حسناً ، وغرهم منها ملمسها الناعم ومظهرها الودي نحو القضية العربية . واقتنع بعضهم مثل عبد الكريم الخليل وعبد الرحمن الشهبندر ومحمد كردعلي بأقواله ، وعرضوا عليه مساعدتهم له في استمالة النفوس الى القضية العثمانية . وتطوع الامير سعيد الجزائري لاستمالة الدروز ، لاسيما وان جمال باشا كان يعتقد خطأ بأن لبنان مليء بالاسلحة وان فيه مالا يقل عن خمسين الف بندقية ، ويخشى وقوع ثورة مافيه على الدولة ، وخيل اليه ان في استمالة الدروز مايعينه على قمعها فارتاح لهذه العروض ، وشره من عبد الكريم الخليل انه أخذ يبذل الجهود العظيمة في جمع المتطوعة من ابناء طائفته « الشيعة » في جبل عامل بلبنان ، وتهيئتهم للدفاع عن السواحل السورية ضد كل غزو محتمل من قبل الاعداء[3] . كما كرس محمد كرد علي قلمه وجريدته « المقتبس » لإطراء سياسة جمال وأخذ يدعمه في مواقفه المختلفة ، وراح جمال من جهته يغدق الالقاب والأوسمة بكثرة على من يتعاون معه من رجال العرب في سورية ولبنان والبلاد

---

(١) عزيز بك : سورية ولبنان في الحرب العالمية ، ص ١٠٨ — ١١٠ ؛ مذكرات جمال باشا ، ص ٣٣٨ .

(٢) عزيز بك : نفس المصدر ، ص ١٠١ .

(٣) مذكرات فائز الغصين، ص ٥ ٢ ؛ اميل يوسف حبشي: جهاد لبنان واستشهاده، ص ٣٩ — ٤١ . مذكرات الدكتور احمد قدرى ، ص ٣٩ .

العربية الاخرى . فمنح كامل الأسعد من جبل عامل رتبة البكوية من الدرجة الثانية ووسام المجيدي الثالث ، واستصدر ارادة سنية بمنح عجيمي السعدون رئيس عشائر المنتفق (العراق) رتبة الباشوية مع لقب « ميرميران » ، وهو من القاب الجيش الرفيعــــة ، فضلا عن اغداقه الأموال الطائلة على آل الرشيد في حائل (نجد) [١] .

وفضلا عن ذلك فقد أخذ جمال يتغنى بنغمة « الجامعة الاسلامية » التي تجمع العرب والترك ، فلا يدع مناسبة تمر الا ويعلن حرص دولته عليها ويدعو الى تعزيزها . وقد اصبحت خطبته الاولى التي القاها في الحفلة الأولى التي أقامها في دمشق على شرف الشيخ عبد العزيز جاويش (تونسي الأصل مصري الجنسية ، ومن معارضي الاصلاح اللامركزي) تتردد على كل لسان ، وهي التي جاء فيها :
« ان البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه بحذافيره لاصلاح حالة العرب لأوسع بكثير مما يخطر بالبال ، ولست انا من الذين يتوجسون شراً من بقاء العنصرين العربي والتركي متحدين وتابعين لخليفة واحد مع انفصال احدهما عن الآخر كشعبين متحالفين .. أؤكد لكم ان الاماني التركية والأماني العربية لاتتعارضان مطلقاً ؛ فالترك والعرب ليسوا سوى اخوان في غايتهم الوطنية .. وان هذين الشعبين مقضي عليهما بالفناء في اللحظة التي يتخاذلان فيها .. »[٢] الى آخر ماهنالك من العبارات المعسولة .

وقد اظهر جمال باشا ارتياحه الشديد – كما جاء في مذكراته – لما كان

---

(١) مجلة الحرب العالمية الأولى (طبعة ثانية من اخراج عمر أبو النصر) : مقال جمال باشا يحاول التقرب الى العرب ، ج ١٦ ، ص ١٣ .
(٢) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٣٩ – ٣٤١ .

من أثر لخطبته في نفوس الجماهير العربية التي احتشدت في اليوم التالي باعلامها تقسم اليمين لتكونن مخلصة للدولة العثمانية ولتبذلن ارواحها دفاعاً عن حوزة الاسلام والدولة العلية. غير انه لم يكتم، مع ذلك، ماشعر به من الاضطراب والاستياء للمظاهرة القومية العربية التي انفجرت في داخل قاعة الاحتفال، حينما راح الشبان العرب ينشدون الاناشيد الحماسية «التي رددت الآمال في تحقيق الوحدة العربية» كنشيد **نحن جند الله شبان البلاد   نكره الظلم ونأبى الاضطهاد** تلك الانشودة التي قال عنها جمال انها «كادت تزلزل فوق رؤوسنا سقف المكان الذي كنا فيه»[1]. فلم يبرح دمشق الى قناة السويس — وكان على عجل من أمره في المسير اليها — حتى أمر بحل كتيبة ضباط الاحتياط العرب قبل ان ينتهي تدريبها، وارسل رجالها، وكان عددهم ينوف على ثمانين ضابط صف — ومنهم جلال البخاري الذي كان صوته الرخيم الجهوري يجلجل بهذا النشيد في الاحتفال — الى ميادين الحرب في الدردنيل[2].

واذا استثنينا هذه البادرة السلبية من جمال باشا حتى ذهابه الى قناة السويس غازياً، وعودته منها خائباً، لم يصدر منه اي عمل يدل على سوء نواياه نحو احرار العرب من دعاة القومية. لكنه لم يكد يعود من حملة القناة حتى قلب ظهر المجن لمن قربهم منه، وانقلب من رجل ذي مظهر وديع الى مايشبه الوحش الكاسر في طغيانه وارهابه، فما هو السر في هذا التحول المفاجىء؟

في الواقع ليس المظهر الجديد الذي ظهر به جمال سوى نهاية لدور تقمصه لتمثيلية قد اصطنعها ليصل منها الى غاية في نفسه، حتى اذا انتهى تمثيله للدور عاد الى حقيقته. كان جمال في صدد حملة عسكرية ذات شأن عظيم يبغي بها فتح مصر

---

(١) مذكرات جمال باشا، ص ٣٣٩.

(٢) مذكرات أحمد قدري، ص ٣٩؛ مذكرات فائز الغصين، ص ٨١.

والجلوس على عرشها ، فلو سار في سياسة الشدة والبطش في سورية منذ قدومه اليها لكان لسياسته هذه أسوأ الأثر عند عرب مصر ، ولم تخل مذكراته من اشارة خفية الى ذلك ، كما جاء في مذكرات عزيز بك قوله « لم يشأ جمال ان يعتقل السوريين المتهمين بالوثائق الافرنسية خوفاً من عرقلة سيره الى غزوة القناة »[1] ، هذا فضلاً عن ان سياسة البطش قد تأتي بعكس مايتمناه من المعونة التي كان يرجوها من العرب في هذه الحملة ، اذ كان قد طلب من الحسين شريف مكة ان يمده بكتيبة من المتطوعين الحجازيين ، ومنه ومن ابن السعود بعدد كبير من الجمال .

ان جمال باشا كان يحمل معه — منذ قدومه من الآستانة — التصميم الصادق على الفتك باحرار العرب والتفويض الكامل به ، وباتخاذ كل اجراء يراه مناسباً على مبدأ « يفعل ولا يُسأل » ، كما عبر عنه بعض كتاب الترك[2] ، والتوجيه اللازم للسير في هذه السياسة قد تلقاه من وزير الحربية انور باشا (الرجل الأول في الدولة) ومن المركز العام لجمعية الاتحاد والترقي . وقد ذكر رئيس استخباراته عزيزبك في مذكراته ان جمال باشا قد زود بمشروعين خطيرين : الأول الغاء امتيازات متصرفية جبل لبنان واخضاع سكانها للسيادة العثمانية المباشرة ، والثاني : القضاء على الفكرة العربية التي اختمرت في النفوس وتتريك العرب[3] . ذلك ان الثالوث الدكتاتوري الحاكم (انور ، طلعت ، جمال) قد

---

(١) عزيز بك ، نفس المصدر ، ص ٧٩ .

(٢) G. Vardar : Ittihat Ve Terakki Içinde Donenler p. 305 (la yus'el am ma yaf'al) ; A. B. Kuran : Osmanli Imdoretor Inguvde Inkilab Horeketleri, p. 647

(٣) عزيز بك ، نفس المصدر ، ص ١٢٨ — ١٢٩

رأى في الحرب فرصة للتخلص من نتائج اتفاقية باريس بين العرب والترك، والضرب بنصوصها عرض الحائط، فاراد الاتحاديون التعجيل في القضاء على احرار العرب كي لا يبقى امامهم ما يسمى بالقضية العربية، لا سيما اذا احرزوا النصر في نهاية الحرب [1]. هذا من جهة، ومن جهة اخرى يكونون قد انزلوا الرعب والهول والارهاب في قلوب السوريين والعرب عامة فلا يحركون ساكناً يضر بالترك في هذه الحرب الضروس التي تخوضها الدولة [2].

اما فشله في حملة قناة السويس، ونكول الشريف حسين عن مساعدته بالرجال، وعار الهزيمة الذي اصبح يلاحقه أينما حل، والوشايات التي أخذت تنهال عليه منذ وصوله الى حلب، كل هذه الأمور كانت من العوامل التي زادت في ضرام نزوعه الى الفتك والارهاب. يضاف الى ذلك أن الوثائق التي عثرت عليها السلطات التركية في قنصلتي دمشق وبيروت الافرنسيتين وكان فيها ما يشير الى اتصال بعض الاصلاحيين العرب — ولكن قبل الحرب — بدولة اجنبية في سبيل الاصلاح، ثم مخابرات حزب اللامركزية العثماني في مصر، تلك التي وقعت في يد الحكومة، وما بلغه من وجود حركة غامضة تدل على نشاط الجمعيات العربية، قد اقضت مضجعه فكشف القناع عن وجهه، ليظهر على حقيقته، ويصبح ذلك السفاح الذي عرفه التاريخ. واما السبب الأخير، اي « تحريك العرب للثورة » — كما عبر عنه — فهو الذي ألح عليه في مذكراته تمويهاً وستراً للحقائق الاخرى الكامنة في صميم سياسته العربية، بدعم وتأييد من سلطات الآستانة.

ولا يفوتنا في هذه العجالة ان نشير الى مكر جمال باشا في معرفة ما تنطوي

---

(١) A. B. Kuran : Ibid . . p. 645

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام، ج ٣، ص ١٣٨

عليه نفوس احرار العرب . فقد تظاهر انه في سبيل اقـــامة عرش له في سورية يجلس على اريكته مستقلاً عن الاستانة بمساعدة الاحرار ايامهم، ولمصلحتهم ومصلحة قومهم ، وقد يكون فاتح عبد الكريم الخليل بذلك جساً لنبضه . وقد ذكر عزيز بك أن جمالاً كان في الواقع يطمح الى المناداة بنفسه خديوياً على سورية عندما يحين الوقت[1] . وأنا اعتقد انه لو كان قد وصل الى غـايته على اكتاف الاصلاحيين لكان قد تخلص منهم في النهاية ، لأنه ليس من المعقول ان يعتقـــد باخلاصهم له، لمعرفته الأكيدة بأن هذه العناصر لم تكن في الواقع تناضل وتكافح للخلاص من نير الآستانة لتقع تحت نير رجل معروف بنزعته الطورانية التي أكدها رئيس استخباراته بكونه الرجل العصري الوحيـد بين وزراء الدولة ، وانه عزز اندية « تورك اوجاغي » حتى اصبح زعيم الشبان والشابات الحقيقي الذين اصبحوا يقدسونه كرئيس لهم[2] .

ومما يؤكد رأينا هذا ما اورده عزيز بك من أن اعتماد جمال كان على ثلاثة عناصر في سورية ، اولها : « القبضايات » الذين يتصفون بالرجولة ويضعون انفسهم في خدمة وجهاء الاحياء من (باشوات وبكوات) ، وقد أغدق عليهم الأموال الطائلة ، واتخذ منهم شبه حرس خاص له . وقد اعتقد انه بسواعدهم قد يستطيع أن ينادي باسمه خديوياً على سورية عند سناح الفرصة . وثانيها : فئة رجال الدين لادراكه مالهم من نفوذ على الشعب ، فاستمالهم واكرمهم وبـــذل لهم الاموال الطائلة والمؤن. وثالثها طبقة الاغنياء التي اخذت تجمع ثروة طائلة من وراء نفوذه، وكانت تتزاحم في كل مناسبة لتقيم له الولائم والحفلات[3] .

(١ - ٢) عزيز بك ، نفس المصدر ، ص ١٠٤ ، ٦٥ .

(٣) عزيز بك ، نفس المصدر ، ص ١٠٤ — ١٠٦

لقد ذهب الخيال بأحمد جمال الى حد القول أن محمد علي لما غادر «قوله» الى مصر كان رجلاً عادياً ، فما لبث ان ولى نفسه خديوية مصر ، بعد أن هدم سلطة الدولة العثمانية القوية فيها ، ولا يزال احفاده يحكمونها ، فلماذا لايقوم هو نفسه بهذا الدور في البلاد العربية فيعلن استقلاله في ادارتها وحكمها ، مستعيناً بفئات من « الزعانف » على حد تعبير « جمال باشا » (الصغير) ، منحهم من النفوذ ومن المال ما اعتقد انه كاف لتزويدهم بالقوة التي تمكنهم من مقاومة زعماء البلاد (الاحرار) الذين كان يرى انه اذا منحهم شيئاً من النفوذ قاموا ضده [1] .

وهناك من المصادر مايشير الى ان جمال باشا قد اتصل بالجواسيس الاجانب ، وانه قبل مبدئياً ما عرضوه عليه من اضرام ثورة في سورية لمصلحته ومصلحة فرنسا ، وان مفاوضات قد جرت بينه وبين الحلفاء للانفصال عن الدولة العثمانية ، واعلان نفسه سلطاناً على البلاد العربية وارمينيا وكردستان بمعاونتهم لقاء ان يتنازل لهم عن المضائق والولايات الاوربية ، وان فتكه ببعض احرار العرب — ومنهم عبد الكريم الخليل — كان مبعثه التخلص منهم لكونهم قد اطلعوا على هذه المفاوضات . غير ان هذه الأقوال لاتجد لها سنداً تاريخياً موثوقاً ، وقد نقضتها تحقيقات المؤرخ التركي الضليع (يوسف حكمت بايور)[2] .

سياسة الارهاب :

ومع ذلك فان جميع القرائن تدل على ان سياسة البطش والارهاب كان موعزاً بها من الآستانة ، حمل جمال عند قدومه الى دمشق اولى تعاليمها بالاضافة

---

(١) جمال باشا (الصغير) : كيف جلت القوات العثمانية عن بلاد العرب، ص ١١

(٢) Y. H. Bayur : Turk Inkilabi Tarihi , III 1, p. 224

الى ملفات جميع زعماء الحركة العربية وتقارير الجواسيس بحقهم [1]، ومن ثم تالت مع الأيام توجيهاتها. وقد اورد المحامي فائز الغصين في مذكراته (ص٥) من انه قد تحقق بنفسه من أن الحكومة التركية قد وطدت العزم على البطش بشبان العرب وتشتيتهم وابعادهم الى المنافي، وان صديقه خالد الحكيم قد حذره في ٢٣ تموز ١٩١٥، واعلمه بأن أحد ضباط اركان الحرب قد أسر له عن «برقية وردت من الآستانة لقيادة الجيش في دمشق تقضي باتخاذ جميع الوسائل والطرق لتشتيت شان العرب المؤمنين بقوميتهم، وتمزيق شملهم حتى والقضاء عليهم».

وقد اشار جمال باشا نفسه الى ذلك في آخر خطاب القاه في دار الحكومة بدمشق: «ان طالعي كان القتل، ندبت لقتال الناشزين من الأتراك (يشير الى من شنقهم سنة ١٩١٣ في الأستانة من الائتلافيين)، كما ندبت لقتل الناشزين عن الطاعة من العرب» [2].

غير ان هذا الندب قد لاقى هوى في نفس جمال، واستجابة من طبيعته التي فطرت على الشر، فانساق في اعمال الارهاب الى درجة أن الآستانة نفسها لم تستطع كبح جماحه في نهاية الأمر [3]. والواقع أن أنور وطلعت قد لمسا فيه هذه النزعة فلم يريا أقدر منه على تنفيذ الخطة التي رسماها لافناء احرار العرب، نظراً لقوة عارضيه وشدة بأسه. هذا من جهة ومن جهة أخرى فلشدة ما كانا يعانيان من مشاكساته ومنافسته لهما ووقوفه حجر عثرة في سبيل مآربهما الشخصيـــة — إذ كان مثلهما طموحاً يحب الانفراد بالسلطة والاستقلال في

(١) محمد كرد علي، نفس المصدر، ص ١٣٨.
(٢) محمد كرد علي: نفس المصدر، ص ١٣٨.
(٣) Y. H. Bayur: Ibid. III, 1, P. 221

الحكم — رأيا ان يبعداه عن الآستانة ويزجاه في مشاكل العرب ، ويغرقاه في بحر من الحرج .

لكن التنافس بين أنور وجمال مالبثت مشاهده أن أخذت تتدرج بالتكرر في سورية — بعد قدوم جمال اليها — كما اخذت بوادر الحسد والغيرة والدس والوقيعة تلعب دورها بين بعض السوريين ممن عرفوا باقتناص الفرص . فقبل ان يسافر جمال الى سورية أوفد انور باشا مرافقه الخاص وبعض الشخصيات السورية ممن عرفوا باخلاصهم الشديد لأنور باشا بصورة خاصة وللاتحاديين بصورة عامة[1]، وبدعوتهم الى التمسك بأهداب الجامعة الاسلامية — العثمانية ، وبمناوأتهم للاصلاح العربي على الطريقة اللامركزية ، وذلك لكي يمهدوا الجو الصافي لجمال قبل وصوله . غير ان جمال باشا لم يرتح للعمل الذي بدر من أنور باشا ، واعتبر ماقام به موفدوه ضرباً من الفوضى ، فأبرق طالباً اليه ان يستدعي مرافقه وان يتكل عليه وحده في ادارة شؤون هذه المنطقة . ذلك انه لم يكن يرغب قط في أن يكون بجانبه اشخاص يعملون لحساب غيره ، بل كان يرغب في ان يتصرف في شؤون سورية وكأنه السيد المطلق فيها . بهذه الصورة استطاع أحمد جمال القضاء على ما كان يرمي اليه أنور من منافسة نفوذه في سورية بواسطة صنائعه المعروفين من العرب .

في الحقيقة كان كل من انور وجمال يعمل لنفسه ، وكذلك بقية اعضاء جمعية الاتحاد والترقي البارزين كطلعت بك وخليل بك منتشة (وزير العدل ثم رئيس مجلس المبعوثان) . ولم يكن الحزب الذي ينتمون اليه سوى الواسطة التي تساعد كلا منهم على ترويج الدعايات الشخصية . كان هؤلاء الأربعة يمثلون اربعة اتجاهات متناقضة في قلب جمعيتهم ، ولكل منهم انصار في انحاء السلطنة . كان

(١) على من يشاء معرفة اسماء هذه الشخصيات ان يراجع مذكرات عزيز بك ، ص ٦٣ (ويجده في المكتبة الظاهرية بدمشق)

هناك انصار لجمال عرفوا باسم « جمـــالين » ، كما كان لأنور انصار عرفوا باسم « انورين » وقس على ذلك .

بيد أن الاشخاص الذين كانوا يؤيدون أنور من السوريين مالبثوا — بعد الذي رأوه من قوة جمال ومقدرته — أن تقربوا اليه وأصبحوا يتمسحون بأذياله ، وينقلبون من انوريين الى جماليين ، ويفتخرون بأن يكونوا من اتباعه ، وما زالوا يجدونه حتى استطاعوا اجتـــذاب عطفه عليهم بعد أن ابدى سأمه من تملقهم له . ولم يلبث بعدئذ أن اعتاد هذا التملق وبات يهتز طرباً لدى كل مديح ، وتهزه النشوة ويعتز عندما يبلغه ان الشعب ينظر اليـه غولاً يخشى بأسه وسيطرته . كما بدأ الحسد والغيرة يتلكان شعورهم من تقريبه الظاهري للاحرار العرب كالشهبندر وعبد الكريم الخليل وغيرهما ، فأخذوا يدسون الدسائس للايقاع بهم ، ويوغرون صدر الباشا عليهم ، وكانوا السبب في اعدام بعضهم . وقد اعتمد جمال باشا على هؤلاء الصنائع اعتماداً تاماً بعـد أن التفوا حوله فأسند الى بعضهم وظائف كبيرة وجعل من بعضهم الآخر مخبرين خواص له ، او مستشارين مختارين .(١) وبعدُ ، من هو جمال وماهي الصفات التي فطر عليها ؟

جمال باشا :

ينتمي جمال باشا في أصله الى العرق الكردي ، وقد ولد من أب عمل جلاداً في خدمة السلطان محمود الثاني ، وكان اسم « الجلاد » هو الشائع عن ابيه في الآستانة . عرف بالذكاء المتوقد وسرعة الفهم والمهابة ومضاء العزم ، كما عرف بالشدة والعنف والفظاظة وسرعة الانفعال والغطرسة وشدة المراس ، مع غرام بالمجد وولع باكتساب ذوي الذكر ومقدرة على كتم نواياه الخبيثة والظهور بمظهر

(١) عزيز بك : نفس المصدر ، ص ٦٣ — ٦٧ .

يختلف عن المحبو ، فاذا مااستثير وغضب اصبح مخلوقاً فظاً لا يتورع عن شيء ، وهو في اندفاعه الى الانتقام والبطش شبيه بالوحش الضاري فتكاً بخصومه .(١)
وقد شغل طوال وجوده في الآستانة ، والى جانب الوظائف التي تقلدها ، ادارة فرع الجواسيس والفدائيين في جمعية الاتحاد والترقي ، وكان الرأس المدبر لجميع المؤامرات والاغتيالات التي انتهج خطتها الاتحاديون ، كما كانهو الذي دبرمذابح الارمن في آضنة عام ١٩٠٩ عندما كان والياً عليها .

وعندما جثم على صدر سورية استطاع - بما احاط به نفسه من مظاهر السلطان والأبهة وما اصطنعه من وسائل الجبروت والقسوة - أن ينشر جواً قاتماً من الارهاب الشديد ، قاسى العرب في ظله عظيم العنت والبلاء والذعر ، وزادديوان عاليه الذي اقامه للتنكيل بالعرب - بما رافقه من تحقيقات ومطاردات ومآسي مفجعة - الشدة شدة والبلاء بلاء ، اذ أخذ يبطش بطشاً شديداً ، فيأخذ البريء بجرم المذنب ، والمحق بعمل المبطل ، حتى لقد صارت القلوب تهلع من ذكر اسمه ، والبلد الذي ينزل فيه يهتز رعباً من قدومه ، وكان وجوده ، كما كانت رحلاته تتراءى للناس وكأنها البلاء النازل والداهية الدهياء ، يحار الناس كيف يدفعون شره ، ويدعون ربهم بان يلطف بهم من طغيانه ، ويتفنن الذين كتب عليهم أن يحتكوا به في ضروب التزلف اليه جلباً لرضائه ودفعاً لسخطه(٢).

الديوان العرفي :

ما ان عاد جمال مخذولاً من حملة القناة حتى التف حوله المتملقون وازدادت موجة الوشايات التي اخذت تنهال عليه من كل جانب ، وتراكمت امامه تقارير

(١) Capit. Seignobose : Turcs et Turquie , pp . 55 - 56
(٢) محمد عزة دروزة : حول الحركة العربية الحديثة : ج ١ ، ص ٤٣

جواسيسه ورجال استخباراته ، وكلها تضرب على وتر اتصال السوريين بالحلفاء وبخاصة منهم الافرنسيين - زوراً وبهتاناً - وأخذت فكرة نزول قوات عدوة في الاسكندرونة تتناقلها الأفواه ، وراجت شائعة قوية في بيروت وسورية بان مسيحيي لبنان قد وطدوا العزم على القيام بثورة ، فاشتد جزعه . واستغل الحلفاء هذه البلبلة فأخذوا ينشرون الأراجيف المختلفة التي من شأنها التفريق بين الشعبين العربي والتركي . وذلك في نفس الوقت الذي أخذ فيه الحقد على العرب ، وبخاصة منهم الشريف حسين ، يفري كبد الطاغية من جراء فشل حملته ، فصار يستمع الى كل ما يقال ، ويصدق كل ما يسمع ، وبدأ يتوهم انه محاط بالخونة والجواسيس من جميع الأطراف ، وان احرار العرب انما هم الذين يهيئون الثورة الموهومة ، فزادته هذه الاوهام حدة وغضباً ، ورغبة طاغية في الانتقام والاقتصاص ، بحق او بدون حق ، من كل من سبق له نشاط في العمل القومي العربي ، ولو قبل نشوب الحرب بزمن طويل .

كان جمال قد صرف جل اهتمامه الى تنظيم دائرة الاستخبارات في سورية ولبنان وفلسطين ، فأعفى رجال الصحافة من الخدمة العسكرية أو أجلها ، وخصص لهم مبالغ ضخمة ، كما خصص مبالغ طائلة للجواسيس بحسب أهمية مناطقهم ، وعني خاصة بالتجسس في منطقتي دمشق وفلسطين ، وقد أربى عدد الجواسيس فيها على مائتين ، يتراوح راتب كل منهم بين ٥ - ١٥ ليرة عثمانية ذهبية شهرياً ، فجمال هو الذي خلق الجاسوسية في سورية تأييداً لمركزه فأصبحت تحصي على الاحرار انفاسهم ، وذهبت بأرواح الكثيرين منهم ضحية لتقاريرها الكاذبة .

وما لبث الطاغية أن نبش قضية الوثائق التي عثرت عليها سلطات دمشق وبيروت في قنصليتي فرنسا فيهما ، تلك الوثائق التي قال انها تتناول شخصيات

هامة من العرب منهم: الأمير علي عبدالقادر الجزائري وكيل رئيس مجلس المبعوثان، وأخوه الأمير عمر النائب في مجلس « المبعوثان » عن دمشق ، وشفيق المؤيد العظم، وعبد الحميد الزهراوي عضو مجلس الأعيان، ويحيى الأطرش من شيوخ جبل العرب، وعبد الوهاب الانكليزي المفتش الاداري، وشكري العسلي ورشدي الشمعة نائبا دمشق السابقان ، وغير هؤلاء من كبار وجهاء العرب . وزعم انه كان قد احتفظ بها في احد ادراجه عندما عرضها عليه والي دمشق خلوصي بك فور قدومه الى دمشق ، ولم يشأ ان يتخذ — كما قال في مذكراته — « اي اجراء بشأنها خوفاً من تعريض وحــدة الاسلام للخطر ، وضناً من أن تنظر أقطار اسلامية انقطع اتصال الترك بها كمصر والجزائر ومراكش الى الأتراك وكأن ثورة من الانتقام قد تملكتهم ، وأملاً في ان يرعوي من تناولتهم هذه الوثائق فيقلعون يوماً ما عن غيهم »(1)

كما وقعت في يد السلطات التركية وثائق سياسية هي عبارة عن مراسلات وأوراق بينها نسخ منشورات قديمة العهد ومخابرات شتى تتعلق بحزب اللامركزية العثماني في مصر والجمعية القحطانية والجمعية الثورية . والمسؤول في شأن هذه المراسلات والأوراق هو أمين سر الحزب حقي العظم الذي لم يكن يتحرج عن اذاعة مناشير متطرفة في ثوريتها مما يوجب مسؤولية الحزب باعتبار انها تدعو الى الكفاح المسلح ضد الدولة . غير ان بعض المصادر التاريخية تؤكد أن حقي العظم كان يتصرف في اذاعة هذه المنشورات تصرفاً ذاتياً بمعزل عن هيئة الحزب المسؤولة(2)، وانه كان من الطامعين في الوظائف الكبرى وحاقداً على بعض اقطاب الحزب — لاسيما عبدالحميد الزهراوي بعد أن تولى منصب عضو في مجلس الاعيان

---

(1) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٣٥ — ٣٣٧ .
(2) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، ج ١ ، ص ٦٥

إثر اتفاقية باريس — وبتوخي أحداث البلبلة ليصطاد في المياه العكرة . كما تشير بعض المصادر الى مسؤولية واحد ممن ادرج اسمهم في قائمة شهداء ٦ ايار وهو « محمد الشنطي » — اليافاوي الاصل — الذي تحوم حوله شبهة الخيانة (١) ، اذ كان معاوناً لحقي العظم في الحزب ، وقد يكون استولى على هذه الاوراق وسلمها للترك لقاء مكافأة . ولكنه بعد أن لقي حظوة لدى الترك استغل هذه الحظوة للابتزاز فكان جزاؤه الشنق عندما اطلع جمال باشا على سلوكه هذا(٢) .

والملاحظات التي يمكن ابداؤهـــا على الوثائق المنوه عنها بما فيها وثائق القنصليات الافرنسية وعلى الملابسات التي رافقت هذه القضية هي كما يلي :

١ — الوثائق ترجع بأجمعها الى ماقبل الاشهر الأولى من عام ١٩١٣، أي الفترة التي كان العرب يفكرون فيها بالخروج من مأزق التضيق الشديد الذي تعرضوا له من حكومتهم — بعد حرب البلقان واستشراء النعرة الطورانية — فانتهى بهم الأمر الى عقد مؤتمر باريس (١٨ حزيران ١٩١٣) ، ومعروف أن الأمور قد سويت بين العرب والترك على وجه مرضي عنه من الطرفين بعد نجاح ذلك المؤتمر . ومعنى ذلك ان الاتراك قد أقروا كل عمل قام به العرب ، في الفـــترة السابقة ، لتعزيز مطالبهم القومية . هذا بالاضافـــة الى ان ارادة سنية كانت قد

---

(١) راجع التفصيلات في (امين سعيد : نفس المصدر ، ص ٦٦ — ٦٧ ، والقس بولس خويري : الرحلة السورية في الحرب العالمية ، ص ٣٥ — ٣٦ ، حيث يقص القصة صريحة كما سمعها من أحد الضباط العرب اثناء عملية الشنق) .

(٢) هذه نقطة تحتاج الى ايضاح من الذين أمد الله بعمرهم وبقوا على قيد الحياة، وكان لهم صلة وعمل في الحركة الوطنية آنذاك . فيرجى منهم ان ينوروا جيلنا عن دور الشنطي حتى اذا ثبتت خيانته استحق ان يحذف اسمه من قائمة الشهداء الأبرار ، لتبقى هذه الصفحة التاريخية الناصعة خلواً من أية نقطة تشوه طهارتها .

صدرت بتاريخ ١٩١٣/١/٢٩ بالعفو العام عن جميع الجرائم السياسية التي ارتكبت قبل هذا التاريخ، مع اننا نلاحظ ان جمال باشا قد أخذ الشهداء بأعمال قاموا بها منذ ثورة ١٩٠٨ الدستورية.

٢ ــ لم تتضمن الوثائق الافرنسية سوى اسم شفيق المؤيد والأميرين عمر وعلي الجزائري، حشر جمال باشا اسماء كثيرين من احرار العرب الى جانب هذه الاسماء مثل عبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي وعبد الوهاب الانكليزي ورشدي الشمعة وغيرهم، مع انه ليس من دليل في الوثائق المضبوطة يدين أحداً من هؤلاء بالخيانة العظمى: التآمر مع الأجنبي على سلامة الوطن. بل إن التهمة الملصقة بشفيق المؤيد ورفيقه تافهة جداً، فقد اقتصرت الوثيقة على التنويه بان شفيق المؤيد قد استمزج رأي القنصل الافرنسي فيما اذا كانت فرنسا على استعداد لدعم مطالب العرب الحقة، لاسيما اذا عرفنا ان الاستعانة بالرأي العام العالمي، وتأييده المعنوي، حتى والمادي آنذاك، كان متعارفاً عليه في الدولة العثمانية، فالأرمن والالبان وسائر الأقليات الاخرى كانت تلجأ الى مثل هذا الاتجاه، وكانت الدولة تتساهل معها وتستجيب لمطالبها بالرغم من تدخل الدول الاجنبية الفعلي لصلحتها. واما التهمة التي ألصقت بالاميرين عمر وعلي الجزائري فلم تتعد كون جمال قد أخذ على الأول منهما حصوله على الجنسية الافرنسية، وتقاضيه راتباً شهرياً (٣٠) ليرة عثمانية من الافرنسيين (ويظهر انها من المخصصات التي رتبتها فرنسا للأمير عبد القادر الجزائري ولنسله من بعده)، وكونه قد عرف شكري العسلي بالقنصل الافرنسي [١]، وأما الثاني فلم يذكر عنه شيء، ولكنه لم يحكم عليه

(١) الجيش الرابع: ايضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها في ديوان عاليه، ص ٥٧ – ٥٨.

بالاعدام . ولا يفوتنا ان نذكر بان التهم التي ألصقت بأكثر الشهداء لم تعد كونهم ينتمون الى حزب اللامركزية ، او كونهم قد أسهموا في النشاط المتعلق بالمطالبة بحقوق العرب التي لم تكن تتعدى المساواة مع الترك في الحقوق والواجبات، والتي كانت معظم الجرائد العربية ترددها وتنادي بالاستجابة لها ، وكان الأحرار الترك من غير اعضاء جمعية الاتحاد والترقي يؤيدونهم فيها ، ولم تكن تعتبر في السنين السابقة جرماً يعاقب عليه بأي شكل من الاشكال .

٣ — ان في الوثائق الافرنسية من التناقض الواضح مايقلل من قيمتها الى حد كبير ، إذ بينما جاء بعضها يؤكد ان حزب اللامركزية العثماني بمصر قد اجتمع وقرر جعل سورية امارة مستقلة عن الدولة العثمانية ، جاء بعضها الآخر يؤكد أن آراء المجتمعين لم تكن متفقة على هذا الرأي (١) . فاذا عرفنا أن آراء المسلمين الاصلاحيين كانت تختلف عن آراء المسيحيين اللبنانيين منهم — وكان بعض هؤلاء من اقطاب الحزب كاسكندر عمون وغيره — تتضح لنا رغبة جمال في استغلال هذه الوثائق ، والى أقصى حد ، أبشع استغلال . يضاف الى هذا كون الوثائق صادرة عن سلطة افرنسية بحتة ، وليس فيها أي أثر لكتاب موقع من قبل الزعماء السوريين ، فما هو الدليل على صدق السلطة التي أصدرتها ؟ أوليس من المحتمل ان تكون المغالطات السياسية ، وموجبات تعزيز التدخل الأجنبي باظهار السكان ناشزين عن حكومتهم ، وتصوير الأمور بشكل مضخم او مفتعل ، لتبرير التدخل ، هي التي أوحت الى القناصل بكتابتها لحكوماتهم ؟

٤ — واذا ضربنا صفحاً عن التناقض الظاهر في الوثائق وسائر الأمور الاخرى ، فان ما يدعو الى الاستغراب كون جمال قد أخذ بجريرة القلائل الذين

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٥٤—٥٧ (النسخة التركية ص ٥٠ — ٥٦)

ذكرت اسماؤهم فيها جميع العرب الواعين الذين اشتركوا في الحركة الوطنية منذ ابتداء العهد الدستوري ، لاسيما اعضاء حزب اللامركزية باعتبار أن جمالاً قد علم أن شفيق المؤيد وحقي العظم وغيرهما ممن وردت اسماؤهم في مراسلات الحزب هم من اعضائه .

٥ — ان التهمة التي عزيت الى الشهيد عبد الكريم الخليل من انه كان محرض على الثورة بمعاونة الاجانب في جبـــل عامل — وقد ألصقت هذه التهمة بالشهيد بؤامرة مدبرة من قبل خصمه ومنافسه في الانتخابات النيابية « كامل الأسعد » بالاشتراك مع أسعد شقير من فلسطين (مفتي الجيش الرابع) — قد نقضتها وثائق صحيحة وهامة منها ما اورده فائز الغصين في مذكراته من انه عندما كان معتقلاً في سجن عاليه تحدث اليه القائم مقام السابق « ارطغرل بك » (التركي) ، وأخذ يقص عليه قصة اعتقاله قائلاً : « في اليوم الثاني من وصولي الى عاليه استدعيت الى هيئة التحقيق في الديوان ، وسئلت عن أمر لم يخطر لي يوماً ببال ، وهو انني يوم كنت قائم مقام في قضاء جبلة ... وردني بالبريد كتاب من الولاية يأمرني ... بان احقق عن أخبار اتصلت بوزارة الداخلية تتضمن أن عبد الكريم الخليل يقوم بتوقيع مضابط من الأهالي يطلبون فيها حماية بعض الدول الأجنبية ، فقمت بالتحقيق الذي اثبت لي أن هذه الوشاية كاذبة لا تستند الى اساس . (١)

كما اورد عزيز بك في مذكراته برقية شيفرة مرسلة من قائم مقام صيدا (منطقة عبد الكريم الخليل) الى قيادة الجيش الرابع قال فيها : « لقد عرضت في برقياتي السابقة ... حقيقة المناورات الحزبية الموجودة في هذه المنطقة ، والتي

(١) فائز الغصين : نفس المصدر ، ص ١٩

ترمي الى استئثار بعض هذه العائلات بالنفوذ لاذلال الفئة الثانية ، بقصد حرمانهم او التمتع بنفوذ لاتتمتع به الكتلة الثانية ، وبهذا كثرت الوشايات وعمت المفاسد البلاد . انني اتلقى يوماً جملة أخبار من كلا الحزبين او الكتلتين المتعاديتين ، وفي أخبار كل فئة منها مفاسد ومطاعن بالفئة الثانية ، الأمر الذي يتركني في حيرة من أمري اذ كيف استطيع معرفة الحقائق من وراء كل هذه الأمور...»(١)

٦ — هناك ما يشير الى أن بعض الوثائق المنشورة في كتاب «ايضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها في ديوان عاليه» ، الذي اشرف جمال على نشره إثر ايقاعه بالشهداء ، مزورة ومدسوسة على الشهداء . ولذلك فان الوثائق المشتبه بتزويرها — بالرغم من أهمية ما جاء فيها من حيث تجريم المعتقلين — لم تنشر صورتهـا الزنكوغرافية في الكتاب المذكور ، واقتصر الأمر على ايراد نصها فقط . كما أن هناك بعض الصور الزنكوغرافية لوثائق أهمل فيها الحذف والحك والتشويه ، مما يعطي الدليل على صفة الافتعال في هذه الوثائق . ومما يؤيد هذا الظن أن بعض المصادر التاريخية العربية التي ترجع الى عهد قريب من وقت وقوع الحوادث التي نحن بصدد معالجتها ، تؤكد أن الاتحاديين قد اختلقوا بعض الرسائل السياسية وعزوها الى زعماء العرب المتهمين ، كما اختلقوا افادات لم يدل بها هؤلاء .

٧ — أن الارهاق الجسدي والنفسي والتعذيب وحرب الاعصـاب ، وغير ذلك من الاساليب اللاانسانية قد استعملت مع المعتقلين السياسيين بشكل لايستطيع معه أقوى الناس أعصاباً أن يتمالك رباطة جأشه وصلابته . ومع ذلك روي عن الشهداء مايشرفهم في هذا المجال ويرفع رأسهم عالياً ، اذ برهنوا الى آخر لحظة من حياتهم عن علو نفس وشهامـة باحجامهم عن البوح بأسرار جمعياتهم السرية .

---

(١) عزيز بك : نفس المصدر ، ص ٣٤١ — ٣٤٣

٨ — من الثابت أن جمال باشا قد توخى من اعدام هؤلاء الشهداء أن يقضي على وعاة العرب واذكيائهم والجريئين منهم ، ولاسيا الذين يخشى خطرهم ، حتى لايبقى من يصلح للدفاع عن القضية العربية . فقد نقل الدكتور احمد قدري في مذكراته (ص ٥٤ — ٥٥) أن مستنطق ديوان حرب عاليه قد باح له بأن الديوان محكم بالشنق على كل من يؤتى به اليه كي لايبقى في بلاد العرب من يفكر بالانتفاض على الدولة العثمانية ، وانه (اي الدكتور احمد قدري) قد دعا شكري بك رئيس الديوان الى حفلة ساهرة ، وانه قد استثار عواطف الرحمة والشفقة في قلبه لانقاذ اخوانه ، فأجابه رئيس الديوان ، والدمع يترقرق في عينيه ، بأن ليس في وسعه تلبية طلبه لأن جمالاً « مُصر كل الاصرار على شنق اكبر عدد ممكن من المعتقلين ، وبخاصة اولئك الذين يخشى أن يقوموا بحركة من الحركات في سبيل قضية بلادهم » .

وقد جاء في مذكرات عزيز بك أن جمال باشا كان يبالغ في التشديد على ديوان الحرب بضرورة الحكم على الموقوفين بشدة متناهية ، وأنه قد حصر كل همه في هذا الصدد ، إذ كان يخابر رئيس الديوان وأركانه يومياً ، متتبعاً بدقة زائدة سير القضية (١) .

٩ — ان الحكم الذي توخاه جمال لم يكن بما يتناسب مع الجرم المرتكب ، بل بما يتناسب مع أهمية الشخص المتهم ومركزه الاجتماعي ومواهبه الفكرية ، ولنستمع اليه في مذكراته إذ يقول : « ... أما أنا فكنت أرى أن عقاب الخائن لدينه ووطنه ينبغي ان يكون مناسباً للمركز الاجتماعي الذي يشغله » . كما يقول في موضع آخر : « وبما أن محاكمة عبد الغني العريسي قد كشفت الستار

(١) عزيز بك : نفس المصدر ، ص ٨٤ .

عن عدة حقائق أليمة ، فقد أيقنت أن الوقت قد حان لاستخدام الوثائق التي ضبطت في القنصلية الافرنسية ، فطلبت الى وزيري الداخلية والحربية تخويلي السلطة اللازمة لذلك ، فوافقا على طلبي بعد تبادل الرسائل الطويلة . وقد عزوت ترددهما الى كون الاشخاص الذين تدينهم الوثائق من ذوي المناصب العالية (ويقصد بذلك : الزهراوي وعمر الجزائري ، والاول عضو مجلس الاعيان والثاني عضو مجلس المبعوثان) ، بينما كنت أرى أن عقاب الخونة يجب أن يسير طرداً مع علو منزلتهم الاجتماعية » .

ويضيف الى ذلك في موضع آخر قوله : « يقول بعضهم : لقد كان ينبغي أن لا ينفذ الحكم الا بعد تصديق السلطان [١] » ورداً على هؤلاء أقول اولاً لقد خولتني السلطة القانونية أن افعل مافعلت ، وثانياً ان المبادرة بتنفيذ الحكم كانت في نظري الوسيلة الوحيدة للضرب على ايدي الخونة ، ففي بلاد العرب يرى الانسان لأرباب الوجاهة نفوذاً كبيراً حتى أن وجود أحدهم في الغالب قد يكون له من التأثير ماليس لفيلق من الفيالق ... » [٢] . ومما يستوقف النظر أن الشهيدين عبد الحميد الزهراوي وعمر الجزائري قد اعدما دون محاكمة ، بل استدعيا من الآستانة واقتيدا رأساً الى المشنقة [٣] .

---

(١) ذلك أن جمال باشا قد نفذ احكام الاعدام قبل أن يأخذ موافقة وتصديق السلطان عليها ، واكتفى بموافقة أنور وطلعت ، بعد ان رفضت هيئة الوزارة باغلبية الآراء طلبه بمحاكمة افراد القافلة الثانية من الشهداء . وكان سبب اكتفائه بموافقة زميليه في الطغيان واعتبارهما السلطة العليا — دون السلطان — خوفه من معارضة وزير العدل خليل بك منتشة واحتمال اثارته عدم كفاية الأدلة والوثائق للحكم بالاعدام .

(٢) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٧٠ — ٣٧١ ، ٣٨٢ .

(٣) Y. H. Bayur : Ibid , III p. 221

١٠ – وأخيراً لقد ثبت أن جمال باشا قد استعمل نفوذه وسلطته الدكتاتورية في ارغام هيئة ديوان حرب عالية على الحكم بالاعدام على الشهداء. فقد جاء في مذكرات «علي فؤاد اردن» رئيس هيئة اركان جمال باشا – كما نقله عنها المؤرخ التركي يوسف حكمت بايور – ان الديوان العرفي لم يحكم بالاعدام سوى على ثلاثة او اربعة اشخاص من جملة الواحد والعشرين الذين اعدموا في القافلة الثانية (٦ أيار). فلما عرض القرار على جمال باشا رفضه وأضاف بخط يده الى جانب بقية الاسماء كلمة «اعدام» بحيث شمل هذا الحكم جميع من وردت اسماؤهم في القائمة (١). وقد أيد الأمير شكيب أرسلان هذا القول في مقال نشره في مجلة المنار القاهرية (راجع: امين سعيد: الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٩٨)، واضاف الى ذلك قوله ان جمال باشا قد استغنى عن رئيس الديوان، واستدعى اعضاءه – وكانوا شباناً لا يخرجون على ارادته – وأمرهم بتنفيذ رغبته فكان الاعدام نصيب الأحرار المذكورين. ولدينا من الشواهد التاريخية الكثير عن المساوىء التي ارتكبت في قضية اعدام الشهداء، كما لدينا الكثير من المستندات التي تصلح لمناقشة الوثائق التي استخدمت في هذه القضية التاريخية الهامة ونأمل ان نعالجها في مناسبة اخرى.

(١) Y. H. Bayur: Ibid., III p. 221
(نقلاً عن مذكرات علي فؤاد اردن).

السلطان رابح

بطل الكفاح في افريقية الاستوائية

نعيم قداح

في هذه الأيام التي تدور فيها المعارك من أجل الحرية والخلاص تسوقنا الذكرى الى انتصارات اخرى قام بها أبطال من صميم القارة الافريقية ، ومن هؤلاء الابطال الذين دافعوا عن افريقية ضد الاستعمار الفرنسي السلطان رابح فضل الله أو كما يسميه الفرنسيون بونابرت السودان الأوسط .

ولد رابح بالخرطوم عام ١٨٤٦ منحدراً من قبيلة سودانية كان لها شأن كبير في تاريخ سلاطين سنار ، وقد انحدر والده « فضل الله » الى الخرطوم سالكاً نفسه في عداد الجيش المصري .

وعلى أيدي المصريين من موظفي الحكومة بالخرطوم تعلم « رابح فضل الله » مبادىء الكتابة والعلوم الأولية ، كما درس القرآن على الفقيه الهاشمي في « حلفاية الملوك » . وحين اشتد ساعده ، سمع عن انباء الحروب الاستعمارية التي كانت تشنها فرنسا في الأجزاء الجنوبية من السودان فلبى داعي الجهاد في سبيل الله . ذلك أن الفرنسيين قد شرعوا منذ عام ١٨٩٠ في التغلغل في أجزاء كبيرة من افريقية الاستوائية مما يشكل خطراً كبيراً على السلطنات العربية في السودان . ومن هنا امتد بصره الى الجنوب حيث يعيش الانسان مع الخطر جنباً الى جنب . وما كاد يصل الى « بحر الغزال » ، حتى استقر رأيه على الانخراط في جيش الجهاد بقيادة الزبير باشا والي السودان زمن الحكم المصري البريطاني .

وقد أصبح رابح عوناً قوياً للزبير وقد توثقت العلاقة بينهما حتى ظن بعض المؤرخين أنه كان رقيقاً للزبير ، ولكن انتماءه الى قبيلة « الهمق » التي تولى بعض رجالها الوزارة في مملكة سنار ينفي هذا ، فضلاً عن ان الزبير نفسه نفى تهمة الرق هذه عن رابح للكاتب الالماني « أوبنهايم » .

ولقد وصفه الاستاذ محمد عبد الرحيم في كتابه (النداء في دفع الافتراء) [١] بقوله : « **كان رابح طويل القامة ، كبير الهامة ، ضخم الكراديس ، واسع الجبهة ، معتدل الانف ، خفيف اللحية ، قصير الشاربين ، أسود اللون ،**

(١) مجلة نهضة افريقية العدد العاشر لعام ١٩٥٨ .

جمع الله له ما بين وقار الكهول، ورشاقة الشبان. وكان رابح يكرم العلماء، ويحب الفضلاء، ويعطي المال عطاء من لايخاف الفقر ...»

وقد ظل رابح مرتبطاً بالزبير، مخلصاً له في اقامته بالسودان، وكان ساعده الايمن في فتح بحر الغزال ودارفور. فلما وشى الانجليز بالزبير، واستدعي الى مصر بفضل الدعاية التي نظمت ضده في أوربا، أخلص الاخلاص كله لولده «سليمان» في الوقت الذي ظل فيه شاهراً سيفه، فلما آثر «سليمان» السلامة، واستكان لوعود الاستعماريين وأغمد سيفه، انشق رابح عليه، ولوى زمام فرسه الى أرض جديدة. وشهدت أرض السودان منظرين غريبين، كان أولهما: منظر سليمان مضرجا بدمه وبوعود كاذبة من الانجليز عن سلامته! أما الثاني: فكان هذا الغاز المتصاعد من ألف فارس يشقون طريقهم وراء «رابح» الى غرب السودان في ثقة، وفي أمل!!

وهكذا ساروا يجوبون الارض من تحتهم، وهم في كل خطوة يصنعون التاريخ. فقد كان وجودهم في هذا الوقت بالذات دليلاً على أن قلب القارة مازال ينبض، بل مازال يستعصي على الغزاة الفرنسيين.

مملكة رابح:

تدفقت الدماء حارة في وجه رابح، وهو يتوغل في غرب السودان، وداعبه خيال مملكة يبنيها شبراً شبراً بالرمح، والعرق، والدموع. وتوهج هذا الخيال في نفسه، فلم يشعر الا وهو ينتقل من الخيال الى الحقيقة، الا وهو ينتصر على السلطنات الصغيرة المتناحرة، ثم يدمجها في رقعة كبيرة تسمى مملكة رابح.. لقد وجد رابح أن لا حياة للافريقيين في تلك البقعة أمام الغازي المستعمر الا بتوحدهم في مملكة واحدة.

وقد بدأ بـ « مجر ميمون » حيث أغار على قبيلة « قلا » وأخضعها ، ثم هزم رابح « السلطان هاشم أبو حقيقة » الذي كان يسيطر على قسم من «الرونقا» ثم توجه الى « كتي » وأخضع سلطانها « السنوسي أبكر » وتزوج احدى بناته . ثم أخضع « السلطان كروندس » أحد سلاطين قبائل « البندة » في « أنقو » بالكنغو (برازا) ، ثم « السلطان دنقو » سلطان قبيلة « منجا » ، ثم «السلطان جليو » سلطان قبيلة « سارا » ، ثم السلطان « اندماني » سلطان « دنذي » ، ثم السلطان « كادي » سلطان « باقرما » ، ثم السلطان « جقو » سلطان « بحر أردة » ، ثم السلطان « أم بنداي » سلطان أحد اقسام «سارا» ، ثم السلطان «بنداس» سلطان قبيلة «كريش» . وهذه المناطق تقع اليوم فيما يدعى بجمهورية تشاد.

وبعد أن اجتاح سلطنة « الباكرمي » الشقوية توجه الى مملكة «برنو» .

والبرنو تعتبر من اقصى مديريات شمال نيجيريا من جهة الشمال الشرقي ، وجنوب بحيرة «تشاد» ، وقد كان الدافع الى الغاء هذه الكيانات لدى رابح هو أن كثيراً من زعمائها كانوا يعقــدون معاهدات ثنائية مع المستعمرين يتيحون لهم الفرصة لدخول جيوشهم .

وسكان هذه المملكة خليط من « البرنو » و « الكانجو » والعرب والفلاني . ويقال إن البرنو من عرب جهينة ، وقد نزح أهلها من مصر زمن حكم الفاطميين ، وجعلوا عاصمتهم « قزرقمو » . وقــد كانت بين هذه المملكة وبين مصر صلات ودية .. فقد كان لأبنائها رواق بالأزهر حتى انه في أوائل القرن التاسع عشر تولى الحكم فيها رجل أزهري من الكانو يسمى « الشيخ محمد الكانمي » .

كما يقال ايضاً ان « البرنو » يرجع اصلهم الى « حمير » التي هاجر بعض أهلها الى « نيجيريا » في أوائل عصر الاسلام .

ومهما يكن من شيء فقد دخل رابح معهم في حروب مـــدمرة انتهت بانتصاره . وما كاد يدخل هذه المملكة حتى اقام احتفالا عظيما اطلقت فيه المدافع حتى أن الاهالي هربوا الى الغابات من الخوف ولم يعودوا الا حينما سمعوا الاحتفال بالانتصار يختم بالقرآن الكريم !!

ومن أعظم أعمال رابح انه عمل على نشر الاسلام في هذه البلاد ، واقام كثيراً من المساجد ، ومن أعظم تلك المساجد التي بناها مسجده في بلدة «دكو» . ومن أعماله العظيمة ايضاً انه ألف مجلساً شرعياً برئاسة الفقيه «احمد كبير» وشجع على الأخذ بمذهب الامام مالك .

وفي كل هذه الفترة لم يكن لرابح لقب ينـــادى به . فلما كون مجلساً للنظر في التنظيمات الجديدة كان هذا الشيء أول ما شغلهم ، فلما اجتمعوا قال فريق : نلبسه تاجاً من الذهب ونسميه « سلطان سلاطين العرب » وقال فريق : « لا يليق بمسلم ان يلبس تاجاً من الذهب ولا ان تسمى سلطان السلاطين أو شاهنشاه ، وانما الأجدر ان يسمى (سلطان برنو وملحقاتها) ويلبس الجبة المرقعة » . وقد أخذ فعلاً بهذا الرأي فلبس رابح الجبة المرقعة وسمي سلطان برنو وملحقاتها .

رابح والفرنسيون :

في هذه الفترة من أواخر القرن التاسع عشر كانت فرنسا تبعث برسلها لعقد المعاهدات مع المشايخ والسلاطين في هذه المنطقة . وقد توصلت الى اغراضها بالوعود بالمساعدة والهدايا . وكانت أشهر هذه الهدايا تلك المجموعـــة من البنادق والمسدسات والمدافع التي أهدتها البعثة الفرنسية الى السلطان الشيخ محمد بكر السنوسي . وقـــد بلغ الوعي بالشاعر الشعبي « البخيت الجعلي » الى حد تحذير السلطان من هذه الهدية فقال :

لاتأمن ناســاً خاينين قباح　　　أولادك لابسين فشيك شايلين سلاح

ثم قــال :

آدم أبو كاثوم (١) ولدت نجاح　　　مضمون يفدي الطير عند الصباح
لا تأمن ناساً خاينين كفر　　　من ربنا الوهاب جاك النصر
آدم أبو كلثوم ولدت قـدر　　　مضمون يفدي الطير عند الفجر

وقد بدأت الحرب صريحة بين رابح والفرنسيين حين اشتبه رجاله في فرنسي حضر الى بلدة « كيسوري » العاصمة (وقد تحولت بعد الاحتلال الى فورتلامي) فلما استجوبه رابح قال الفرنسي : انه تاجر حضر من بلاده ليتعرف على رغبات السكان ، ثم يعود . فأوجس رابح منه خيفة واعتقله ، وقام للبحث عن الفرنسيين فوجد أن هناك قوة عسكرية مجهزة بالحديث من المدافع ، متحصنة بالجبال الواقعة في شمال نهر « شاري » وقد قدمت هذه القوة من المناطق التي احتلتها فرنسا في مايدعى اليوم كونغو برازا وجمهورية وسط افريقية .

ومما زاد الموضوع تعقيداً أن السلطان « عبد الرحمن قورنة » سلطان باكيرمي قد انضم صراحة الى الفرنسيين، وأن القوة الفرنسية قد سلحت رجاله . وهكذا غدا أنه لم يكن بد من الحرب . فخرج اليهم رابح في موقعهم الحصين ودارت المعركة كأعنف ماتكون المعارك ، وتكشف غبارها عن قتل جميع الفرنسيين وتشتيت حلفائهم « الباكيرميين » وقتل الكثير منهم .

وقد ذكرت جريدة الاهرام المصرية هذه الموقعة في عددها الصادر في العاشر من تشرين الثاني عام ١٨٩٩ في مقال بعنوان « السلطان رابح » جاء فيه :

---

(١) آدم ابو ام كلثوم ولد السلطان رابح وقائد جيشه .

جاءتنا الأنباء البرقية منذ أيام بسطو سلطان برنو وباكيرمي على بعثة فرنسية وتنكيله بها . وقد قرأنا في جريدة الطان الواردة امس فصلاً جديراً بالمطالعة يستشف من خلاله رأي الوزارة الفرنساوية في أمر هذا الرجل ، وملخصه : ان رابحاً قد لفت اليـــه نظر العالم المتمدن لأسره المسيو بيهاجيل وقتله بريتوناي و برون ومرتين من رجـــال البعثة المذكورة ... ان من الناس في فرنسا مـــن لايثوورون على « رابح » ولكن بعض الأوساط ترى أن هذا التردد لاينجم عنه إلا استمرار العبث والفساد في تلك الأملاك التي اعترفت بها المانيا لفرنسا في سنة ١٨٩٤ وانكلترا في هذه السنة !

.. على أنه بعد ستين يوماً من هذا النصر حضر الفرنسيون مرة ثانية مع حلفائهم الباكيرميين، وكانت تعززهم باخرة مدرعة ، ومسلحة بالمدافع، وقـــد صوبت مدافعها على حصن رابح فأخذ في الانهيار . ولكن جيش رابح خرج من الحصن والتحم مع قوة الفرنسيين البرية ، وأبادها وشتت مرة ثانية الباكيرميين وحلفاءهم الفرنسيين . وحين رأت القوة البحرية هـذا الانتصار تراجعت بعد أن تركت رسالة علقتها على قصبة وركزتها على أحد تلالها وكان محتوى هذه الرسالة الموجهة الى رابح : «ارجع الى عاصمتك فانا قادمون اليك» . وبعد سبعة شهور عاد الفرنسيون للمرة الثالثة بجيش مجهز بأحدث المعدات الحربية ، وبالجنود السنغاليين الذين دفعتهم فرنسا الى الحرب معها ، ووصلوا جميعا في حماية باخرة مدرعة الى بلدة « كيـوري » . وقد ارسل اليهم رابح ولده « فضل الله » فلم يستطع الثبات أمام هذه المعدات الحديثة . فاستنجد بوالده فأنجده بثلاثة آلاف مقاتل فقويت روحه المعنوية وحمل على الفرنسيين حتى هزمهم ، وارغمهم على التراجع عن مواقعهم . واغرق جيش

« فضل الله » بنشوة هذا النصر فشغل بالغنائم ، في الوقت الذي عاد اليه الفرنسيون بأجهزتهم الحديثة . ومن هنا كسب الفرنسيون المعركة ، واضطر جيش فضل الله الى الهزيمة تماما في موقعة « كيسوري » .

وكان لابد من عودة رابح الى الميدان ، وعاد رابح الى قلب المعركة فحفر لنفسه خندقا ليستطيع اتقاء هـــذه المخترعات الحديثة ، ولكن الجنرال « لامي » تمكن من تطويقه في هذا الخندق ، واستمرت الحرب بين الفريقين بوحشية من جانب الفرنسيين وبطولة من جانب الرابحيين . وفي حومة المعركة أصدر الجنرال لامي أمراً بالتركيز على السلطان رابح فتحولت المدافع كلها والبنادق الى شخص واحد .. الى رابح . فقد عرفوا انه هو — لا جيشه — القوة الحقيقية في هذه الحرب . وفي وسط هذه الدوامة تمكن « رابح » من الدفاع وفي جسمه رصاصة ! واثنتان ! وثلاث ! واربع ! وتحول اليه مدفع فسقط لا كجندي ينطرح على الارض ، ولكن كقائد يخيل الى من يراه وهو جاث ، انه مازال يدافع ! مازال يأخذ « وضعا » حربيا يصدر منه الاوامر لجنوده ! ومن هنا لم يصدق جنوده أنه مات في أول الامر . وكان لابـــد من إدراك هذه الحقيقة ، فدارت المعركة مرة ثانية حول الجسد الصريع ، فقد أصر رجاله على العودة به ، وأصرت المدافع على ان يبقى في مكانه . حتى ان عدد الجنود الذين قتلوا في سبيل العودة به فاق عدد القتلى في المعركة ، ولم تنته هذه الهجمات الاستشهادية حول رابح إلا حينما قتل الجنرال « لامي » . ومع ذلك فقد أراد الفرنسيون ان ينفذوا حقدهم عليه فمثلوا بجثته وعلقوا رأسه في العاصمة .

.. وشاء القدر ان يكون أول اجتماع للقائدين بعد اجتماعهما في ميدان القتال هو التقاؤهما كفكرتين في ميدان واحد بمدينة « فورتلامي » عاصمة تشاد .

أما رابح فقد شيد ضريحه على هيئة مربع في كل زاوية من زواياه مدفع .
وأما الجنرال « لامي » فيقف على قاعدة تمثال ضخمة !

وهكذا اتاح استشهاد السلطان رابح للفرنسيين أن يحتلوا تشاد وأن تتصل املاكهم في افريقية الغربية بأملاكهم في افريقية الاستوائية .

ولكنك لن تستطيع في « فورتلامي »، رغم الاحتلال ، أن تحس بشيء سوى رابح والقصص الشعبي الذي يدور حول بطولته وأمجاده ...

فاذا خرجت الى القرى والغابات ، وجـدت تلك الآلة المسماة عندهم « الكيتة » في أيدي الفنانين الشعبيين . وسمعتهم ينشدون عليها دور « رابح » البطولي ، فاذا بالناس يتجمعون ، واذا برابح يعود من جديد .



الآداب

الكتاب والموضوعات

جان كوكتو

شاعر الحياة والحبّ والموت

فاروق يوسف اسكندر
– القاهرة

« ليتني من أهل مصر
تلك التي كان فيها الموت رحلة
اذن لاستطعت النزول الى قاع مقبرتي
لتشربي وتأكلي
ولما تولاك أي حزن
من الوبع الذي طواني
ولكنت تساءلت فقط :
ترى هل قام برحلة موفقة ؟
ولأتيح لك أن تعجبي بتنكو
من يحاكي رجلاً نائماً ؟

وأن تسندي شفتيك بلا رهبة
الى قفازي وخوذتي الذهبية
ولكن ليس هذا هو الذي يحدث
فما أن يتم عزرائيل عمله
حتى يسرع فيزرع
في مكاننا شبحاً .. »

هكذا تغنى الشاعر الفرنسي « جان كوكتو » بالموت ، في قصيدة عنوانها « ليتني » .. وكم اقترن شعره بالموت .. بصورة النوم الأبدي ، وظاهرة انتقال الناعس الى دنيا الأحلام ، وازدواج شخصيته !!.. انه يتهيب — في قصيدة اخرى — أن يوقظ حبيبته الراقدة .. لئلا يردها الى الموت بدلاً من ان يعيدها الى الحياة .. كما فعل بطل الاسطورة اليونانية « أورفيه » عندما هبط الى عالم الموت ليأتي بزوجته « أوريديس »

« عن الايقاظ المباغت يدي الغيرى تتردد
لأنني كنت أرهب الموت .. وأرهب أيها النوم وجهك المجهول

* * *

وبأي حق وأنا واقف يجوز لي أن انتزع هذه الأشكال
من تلك المملكة الخفية التي يرهبها حبنا ؟
نحو الموت الصغير اذا مضى بك النعاس
أتراني مثل « أورفيه » أريد الاهتداء الى طريق
وأن أعيد الى بيتها حية ميته

دون أن أهاب النفور من فك الأكفان ؟ »

وما زال الموت يحوم في اعمال « كوكتو » شبحا او ملاكاً أو أمنية حبيبة تشتاق الى عالم لا محدود ... حتى قضى عليه في الحادي عشر من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٣، ولم يعد الأمر مجرد لعبة استخفاء، أو ترف خيال شبع من متع الحياة الدنيا فأراد أن يتجاوزها .. بل انه الحقيقة الصارمة التي لا مفر منها ، ولا حول دونها لانسان ، ولو كان عضواً من اعضاء الاكاديمية الفرنسية الاربعين ، الذين اطلق عليهم الفنان « سلفادور دالي » لقب « الخالدين » !!

ولكن الموت — على غير ما يتبادر الى الأذهان — شرط من شروط الحياة في أدب « كوكتو » الذي كتب يوماً هذه العبارة : « ينبغي ان يحرق المرء نفسه حياً لكي يولد من جديد .. » . ويتضح هذا المعنى العميق في كثير من قصص « جان كوكتو » ومسرحياته وافلامه السينمائية .. لا سيما « رينو وأرميد Renaud et Armide » و « العودة الأبدية L'Eternel Retour » و « اورفيه Orphée » .

فالموت سبيل البشر الى ولوج عالم الحقيقة ، والتحول الى حياة أرحب ، تتحرك فيها الروح طليقة بلا قيد ولا ثقل . وقد أعتنق « كوكتو » في نشاطه الفني الخلاق مبدأ تجاهل ماضيه ، أي الموت عن العمل الذي أنجزه ، لكي يحيا حياة جديدة في عمله التالي ..

وما أشد تنوع أعمال « كوكتو » وتباينها !! لقد عالج فروع الأدب كلها ، ومارس الفنون الجملة بمختلف مناهجها ووسائلها . ليس الشعر لديه مقصوراً على نظم القصائد .. ووزن الأبيات .. ونشر الدواوين . انه شاعر في انشاء القصة والمسرحية ، شاعر في كتابة النقد ، شاعر في رسم اللوحات وتشكيل

الخزف ، شاعر في تأليف وإخراج الافلام السينمائية والمسرحيات ، وتصميم ملابس للممثلين والممثلات ، شاعر في اقتباس الأساطير القديمة وابتكار اساطير جديدة معاصرة ، شاعر في التعبير بالموسيقى .. وفي التعبير عن الموسيقى برقصات الباليه ، وتجسيم الخيال بالمناظر والألوان والحركات .. وفي بحث له طريف عن « الفنون الجميلة بوصفها اغتيالاً . —

« Des Beaux-Arts considérés comme un assassnat » .

يقول كوكتو : « الشعر كالكهرباء ، قوة قديمة تم اكتشافها حديثاً — من حيث هي قوة — ان ليوناردو دى دافنشي يعـدد امتيازات الرسام على الشاعر ، جاهلاً ان الرسام شاعر وأن الشعر غير محدود بصناعة القريض .. » .

وما دام « كل الصيد في جوف الفرا » كما تقول العرب ، فلعل الذي يجمع بين أطراف انتاج « كوكتو » هذا التشتت — داخل أطار الشعر بمعناه العام — هو طابع التجدد المتواصل .

وكان « كوكتو » يعي ذلك ويعلنه في كل مناسبة ، ولست أنسى أول لقاء لي به . كان يرافق في مارس عام ١٩٦١ فرقة الكوميدي فرانسيز المسرحية .. لتمثيل بعض اعماله في دار الأوبرا بالقـاهرة . ودعوناه نحن الصحفيين إذ ذاك الى زيارة مدينة الأقصر لمشاهدة آثار معابد «ابو سمبل» .. وفي الرحلة خاطبنا قائلاً :

«إنني أعتبر نفسي واحداً منكم ، لأنني أطلب المعرفة دائماً ، وأتعلم كل يوم شيئاً جديداً . وكم كنت أود ان أقضي حياتي صحفياً معكم ! ولكن آرائي تتطور وتتجدد من ساعة الى أخرى ، وأخشى ان اعلمكم اليوم شيئاً أنقضه غـداً وأبني أمامكم غيره بعد غد .. » .

واستطرد في حديثه عن مصر .. فقال بحماسة :

« سأرجع الى بلادي وانا عامر النفس والعقل والخيال بما شاهدت من آثار الفراعنة التي علمتني مالم أكن اعلم . قضيت ثلاثة ايام خاشعة قدسية بين تلك الهياكل والمعابد والرموز التي يجهد العلماء والفلاسفة في تفهم كنهها . اننا جميعاً أطفال نعبث في الرمل .. وننقب .. ونكتشف كشوفا تروعنا . وفي كل يوم تتشكل حولنا طلاسم جديدة . وتتعقد في وجودنا ألغاز جديدة ، ولا بد لنا من التنقيب في كل ناحية ، وفي كل أثر لكي نصل الى السر الكامن وراء الحجب . انني أحيي المجهول .. وأحيي المستقبل الذي ينتظر البلاد العربية .. » .

وانطبعت في ذاكرتي صورة « جان كوكتو » بقوامه المديد الرشيق ، ووجهه المثلث ، وشعره الاشعث ، وحركات يديه الدقيقتين التي تشبه حركات السحرة ، وطلاوة حديثه المتدفق من بديهة حاضرة في تعبير شائق لامع . وما أيسر أن أتمثله كذلك في شبابه المبكر حين بدأ يغزو ندوات الأدب في باريس بقصيدته « مصباح علاء الدين La Lampe d'Aladin » .. ولما يتجاوز السادسة عشرة من عمره !!.

* * *

و « جان كوكتو » فنان باريسي قبل كل شيء . ولد باحدى ضواحي « ميزون لافيت Maison Lafitte » في ٥ تموز (يوليه) عام ١٨٨٩ .. وهو يقول عن نفسه :

« لقد ولدت باريسيا ، وأتكلم الباريسية ، بلهجة باريسية » . وأتاح له مولده من أسرة ثرية ارستقراطية ان يتقلب في مراتع الترف ، وان يلتقي صبياً بأعلام الفكر والفن والمجتمع .. وان يسارع بارتقاء مكان له بينهم .. دون عناء .

ولقد أنجبت باريس طرازاً من الأدباء حبتهم نوعاً خاصاً من الأصالة ؛ يتركز في الاحساس بأسرار الجمال والأناقة . ويتجلى في إرهاف الذكاء ورقة الذوق .. ومثل « كوكتو » في التميز بهذه الفطرة الباريسية مثل معاصره القصاص المبدع « مارسيل بروست Marcel Proust » . وأدى إنغماس « كوكتو » في تلك المدنية البيئة الى انصرافه عن الطبيعة والريف بوجه عام . فغابت مفاتنها الرومانسية من شعره ، وان كان شعره يعكس من حسن التنسيق واتقان الصنعة مانزهو به معالم باريس وحدائق فرساي .

وينبغي ألا ننسى أن « جان كوكتو » لم يعرف أباه ، فقد مات أبوه وهو رضيع في عامه الأول . لذا دللته أمه وجدته : أغدقتا عليه اللعب ، وواظبتا على ارساله إلى ملاهي الاطفال و « السيرك الجديد » و « قصر المرايا » .. مما أطلق العنان لاحلامه في جو من المتعة واللين والحدب .. ووسمت هذه النشأة « جان كوكتو » إلى آخر حياته باون من غرور الطفل المدلل لم يتخلص منه تماماً . فقد ظل يغلب عليه النزق . وراح منذ صباه يتنقل من بدعة إلى بدعة ، لا لشيء إلا لإتحاف الناس في كل حين بابتكار ما . ولإثارة الدهشة من حوله والتعليقات والثناء .

خرج الفتى الشاعر إلى محافل الرسامين والموسيقيين والممثلين . وفي مجالسهم ، ظفر بالأعجاب تلو الاعجاب ، وواتاه المجد يسيرا طيعاً . ولا بد لمن يؤرخ للأدب الفرنسي في النصف الأول من القرن العشرين ، أن يصادف اسم « كوكتو » في طليعة كل مذهب حديث ، وعلى قمة كل موجة جديدة ... وإن كان « كوكتو » لايلبث في كل مرة حتى ينقلب على الوضع الذي استهواه بالأمس القريب ، اثباتا لحريته وأصالته بلا شك — فهو فنان مطبوع يضيق بالقيود

المفروضة — غير أنه في الوقت نفسه حريص على أن يستأثر دون الجميع بمكان الصدارة وأنظار المتطلعين .

وما جدوى التصفيق للشاعر ، والجوائز يتسلمها من أيدي الاصدقاء ؟!! اذا لم يكن لدى الشاعر من رسالة سوى التلاعب بالألفاظ ، فان شهرته طبل أجوف .. سرعان ما تتلاشى دقاته في الفضاء . وهذا ما فطن إليه « كوكتو » .. عندما وجه اليه « أندريه جيد André Gide » و« هنري جيون Henri Ghéon » على صفحات مجلة « الادب الفرنسي » .. عبارات من النقد الذكي اختلط بالمدح واللوم . واعترف « كوكتو » فيما بعد بفضل هذا النقد عليه ، وتذكر أنه كان يلمح كل ليلة من نافذته — دون أن يدرك اذ ذاك مدى وجوب العمل الجدي — ضوء مصباح صغير وراء نافذة مقابلة لنافذته .. هو مصباح الشاعر الناهر « رينر ماريا ريلكه R. M. Rilke » الذي كان يعمل في ذلك الوقت سكرتيراً للمثال العظيم « رودان Rodin » .

وقبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ، طلع « كوكتو » في معرض « الفنانين المستقلين » بباريس على فتح جديد هناك .. اكتشف : بيكاسو وبراك وروسو ، واكتشف المذهب التكعيبي بصرامته وتجريده . ويتصل اعجابه ببيكاسو .. الذي استطاع أن يترجم ما كان يدور في نفسه هو من بحث عن التعبير ، وأن يجاوز له آفاقاً قد تردد في صداهـا نداؤها .. وكتب « كوكتو » عن « بيكاسو » وفنه اكثر من قصيدة .. في فترات مختلفة من حياته .. ففي عام ١٩١٩ قال كوكتو عن بيكاسو :

« إن الاشياء حين تصغي إلى ريشتك المسحورة
أي أورفيوس العظيم .. »

فانها تتبعك حتى تبلغ بها اللوحة التي تريدها لها .. »

قال عن تأثير بيكاسو عليه :

« ان بيكاسو يخترع للعيون استعارات تؤدي لرفعة الفن بتجريده من النكتة الرخيصة ، فهو ذلك السجين الذي يسعى لتحطيم سجنه » ..

وفي عام ١٩٤٥ .. كتب الى بيكاسو قصيدة يقول فيها بعد أن شاهد معرضه العاشر :

« عسير عليّ أن احمل لوحات المتاحف ،
تلك السفينة الواسعة
وما أيسر أن تخاطبني ــ خيرا من أفواهها البالية .
لوحات بيكاسو
هنا رأيت الاشياء التي تطفو في حياتنا ،
مسرفة في الضخامة أو الصغر ،
وقد بنيت أخيرا بناء عميقاً
كما يمزج الحب الشفاه والاطراف .
لقد ضمت ربات الشعر هذا الفنان الى حلقة رقصها وقادت يده ،
لكي يستطيع أن يفرض على فوضى العالم المحبوب
النظام الانساني .. »

واشترك « كوكتو » في الحرب العالمية الاولى في الفرقة « الثانية والعشرين » بيد انها لم تكن فرقة عاملة ، فلم يطق سأمة البطالة فيها، وتحول عنها الى « قسم الدعاية » ، ولكنه سرعان ماضاق بتفاهة الدعاية وأصحابها ، وتاق

للاشتراك في جبهة القتال . ولما اصرت سلطات الجيش الفرنسي على رفض رغبته لعدم لياقته البدنية ، لاذ بصديقه الطيار « رولان جاروس R. Garros » واشترك معه في التدريب على الطيران البهلواني .

وأهدى جان كوكتو عام ١٩١٩ قصيدته « رأس الرجاء الصالح Le Cap de Bonne Espérance » الى صديقه الطيار « رولان جاروس » . على أن تجربة الحرب تبدو لنا بصورة أوضح في ديوان صغير نشره « كوكتو » عام ١٩٢٢ بعنوان « حديث النوم الاعظم Discours du Grand Sommeil » وأعلن أنه : « ترجمة عن تلك اللغة الميتة ، لذلك البلد الميت ، الذي مات فيه اصدقائي » . وهنا يحتج « كوكتو الشاعر » على شبح العدم الذي يراوده . وما احتجاجه سوى استسلام للتيار الجارف . فالشاعر لا يقف بعيدا عـــن المعمعة ، بل انه ليزحف حتى يبلغ قمتها ، ويتوسط الميدان . واذا كان الميدان ميدان دمار ، فلا ضير على الشاعر . لأنه واثق من انه رسول حياة . وتلك بطولة النوم رغم ضجيج الوغى ، بطولة من يتجاوز الاضطراب القريب المباشر ، ويثبت طفولة الانسان وبراءته ساعة يقضي الوقت باعدامه . كأنه ملاك يتكلم ، ويحث النفوس على البعث والتفتح لحياة جديدة . . وهذه قصيدته « لعنة على الغار » تستنزل على الحرب صاعقة الربيع :

« انك تنشرين في كل صوب أغصانك ،
ياشمس المساء ، ياشجرة الكرز المزهرة
ها هو ذا من نفوسنا ينطلق . .
رذاذ فتنة « آذار » الذي تجهله الكثبان
هنا لم يبذر سوى رجال زرق

ينمون فجأة حتى السماء .
هنا لاتستطيع البساتين أن تنبت
والتربة دب شره الى عسل سام
ولكن ، في غير هذا المكان ، أعرف أن الربيع يولد
كما ولدت « فينوس » من أمواج الأرض
بعون الكلاب ، وبائع الحليب ، وأجراس الكنائس
بعون الديكة التي ترتق الصيحات ، بعون الموقد
وبعون الأصوات المفصلة التي تنبعث من قرية على بعد كيلومترات
وبعوني أنا . . يا« فينوس » ، أنا الذي أحتضر
اني أستشعر بتلذذ في نفس تلك الفقاقيع المجنونة
التي انبثقت منها كسدادة ذهبية ،
يا « فينوس » !: واقفة على البحر ، نارا تغطوم في الماء
ماذا عسى أن يخرج من بحرنا الميت ؟
ان الأشجار هنا أشباح أشجار .
والآن الشمس في بحر المغيب
ولم تبق إلا أنوار الساحل الكشافة
هذه الكشافات العمياء تأتي حركات
انسان آلي يتلمس زوايا سقف .
لم يبق سوى البرد المريع
سوى هذا الترامي الرشيق بالرصاص ،
سوى هؤلاء الفتية الفرنسيين والألمان ، تماثيل .

وقفت وجهاً لوجه ، وقد كسرتها هزات الرياح
سوى غار المجد ، هذا النبات الذي ينمو بلا فرح ،
ولا يغذيه إلا الرخام .
أيها الغار الوحشي ،
فلتنزل عليك صاعقة الربيع !»

ويصوغ « جان كوكتو » هذا المعنى الانساني النبيل في أبيات مربعة ، متلاحقة الصور ، مشدودة الأوصال ، لا تتعثر في لغو الكلام ، بل تتنكر الحشو والإطناب ، وتسير دون لأي نحو الهدف . انها خطوط مسددة صائبة ، قوية التعبير ، كخطوط بيكاسو في لوحاته . وفي ذلك تتجلى أصالة « كوكتو » لاسيما اذا قورن أسلوبه الجديد بغنائية الشعراء العاطفيين التي كانت متفشية قبله ..

ويقول « كوكتو » بصراحة :

« الشاعر لا يحلم ، إنه يحصي
والفن هو العلم متجسداً .
هذه هي مهمة الشعر : إنه يزيح الستار
وعلى شعر عصرنا أن يحتفظ بروعة الاستشهاد .. »

ويجمع « كوكتو » عدة مقطوعات قصيرة في العام نفسه تحت عنوان « مفردات Vocabulaire » وهو يقصد بلا شك الى ضغط المادة الشعرية وقصرها على أداة التعبير .. في أبسط الأشكال والتحرر من لزوم مالا يلزم .

* * *

وفي عام ١٩٢٣ .. يطلع « جان كوكتو » بديوان جديد ، يختلف

اختلافا كليا عن ديوانه « مفردات » ، بل يناقضه ، فالديوان الجديد - من بدايته الى نهايته - قصيدة واحدة ، بدلاً من تلك الأبيات المركزة المتفجرة التي تتاثرت في مقطوعات صغيرة متناثرة .. وهاهو ذا « كوكتو الشاعر » الذي عرفناه نافد الصبر ، ثائراً على البطء والإطناب .. يصبح فجأة طويل النفس ، ويعالج في أناة المتأمل الحكيم موضوعا واحدا متشعباً . ويأخذ في إنشاد أبياته المنتظمة انشادا موسيقيا رتيبا ، بل يغرد الموسيقى في صدارة عمله .. إذ يعنون ديوانه « تراتيل « Plain - Chant » .. لقد كتب « كوكتو » هذه القصيدة الطويلة اثناء اقامته في جنوب فرنسا ، على شاطئ البحر المتوسط ، فاستوحى أفق البحر العريض وزرقته العميقة وأصغى إلى توقيع أمواجه الذي لاينقطع . ومهما قيل في تعليل ظاهرة هذا التحول من أنها رد فعل لطبيعة الشاعر وتمرده .. فسوف يبقى ديوان « تراتيل » في عداد الشعر الكلاسيكي المأثور الذي يعتز به الأدب الفرنسي على مر الأجيال .

ولا يشك ناقد من نقاد الأدب الفرنسي المعاصرين في أن ديوان « تراتيل » من أجود شعر كوكتو .. وأدله على معانيه وأغراضه :

« لا أحب أن أنام
عندما يسكن وجهك الليل مستنداً إلى عنقي ،
لأني افكر في الموت الذي يأتي أسرع مما ينبغي
فيدفعنا إلى نوم عظيم
سوف أموت ، وسوف تعيشين ، وهذا هو مايقض مضجعي !
هل هناك خوف آخر ؟
سوى أن يجيء يوم فلا أسمع قرب أذني

انفاسك ودقات قلبك .
يامخدع الحب ، تريث . وتحت هذا الظل الوارف
فلنسترح ، فلنتكلم ، لندع هناك في الطوف
اقدامنا العاقلة ، جياداً قد رقدت جنباً الى جنب ؛
واضعة أحياناً بعض رقابها على بعض
لايخيفني شيء مثل مايخيفني السكون الزائف
من وجه ناعس ..
انا حامك مصر ، وانت المومياء
بقناعها الذهبي .
أنا قلما أسوح . لقدرأيت لندن ، والبندقية ، وبروكسل ،وروما ،والجزائر
ومن متحف الى كنيسة
نقد شغفي بمزيد من الرحلات
لندن قلب من فحم ،حشحاش من الآجر الوردي،فيه يمشي الانسان نائماً .
والبندقية حزينة لأنها ..
جلد حب قديم وليست بمدينة
وبروكسل ، ساحتها مسرح زاخر
وروما تطل بعين جامدة
من تماثيل الطين
والجزائر تعبق بالماعز وزهر الياسمين .
ماكنت سعيداً في هذه المدن التي أحببها ،
كان قلبي يتألم عارياً

وفي باريس نفس الحال .

إني لا أستريح في أي مكان ، الا إذا ضمني ذراعاك

ياربات الشعر ، يامن لايعنيكن أن يرضى الناس عنكن أو لايرضون

أحسن أنكن ترحلن دون أن تقلن لي مجرد كلمة « الوداع »

هاهو ذا صاحبكن وديكه الغاضب

إني لم أعد موضع التقاءكن

لست أجرؤ على الشكوى ، أيتها العاشقات الجاحدات ،

إنكن بلا آذان ولسوف تضيع صيحتي .

ياربات الشعر ، سأرقد ، صدوعا لأمركن

إنها النهاية ، بعد انتهاء عملكن . واني اسمع الملاك

يوصد الباب وراء خطواتكن الكبيرة المسرعة الشاردة

ترى ماذا تخلفن لي ؟ أيها الحب .. اغفر لي .

انا الباقي هو انت ياحمل القطيع

فهلم عانقني ، واقضم هذه الأكاليل التي أحملها

انزع هذا الغار الذي يمزق جلدي » ..

* * *

« جان كوكتو » يجب إذن ان يضلل قراءه ، لكي يخلبهم بالمفاجأة تلو المفاجأة . نظن أنه قد انصرف عن المسرح إلى السينما او الى الرحلة حول العالم .. واذا به ينشر ديوانه الأخير عام ١٩٦٢ تحت عنوان طريف « صلاة جنائزية » .. قسمه قسمين هما : « ضوء وعتمة Clair - Obscur » و « الرقم سبعة Le Chiffre Sept » .

ولقد صدق الناشر الفرنسي « برنار غراسيه B. Grasset » — في مقدمته لبحث كوكتو «بحث في النقد غير المباشر Essai de critique indirecte » — عندما نبه قراء« كوكتو» الى حرص هذا الاديب على التخفي دائماً ، والى أنه يجب الربط بين هذا الميل وميل الأطفال الفطري الى الاختباء ، ولذتهم في ان يبحث عنهم الآخرون وان يجدوهم . وقد يكون حب التخفي من اهم اشكال حب الظهور .. ان « كوكتو » على كل حال يتقن الفرار والتمثيل .ويتفنن في التنكر حيثما كان .

ولعله اول مايختبىء ، يختبىء داخل نفسه . ما اكثر قصائده التي تدور حول هذا المعنى . هاهو ذا يفخر بغوصه البارع في بحر الأحلام :

« أذناي الصاوان
عن الدنيا الخفيفة
تبزغان من المياه الثقيلة
التي فيها أحب أن أسبح
إن هذا البحر
يحول دون أن يتزود امرؤ بشبكة
دون ان يحمل امرؤ صيده
دون ان يكون حيث يكون
عندما أنهض من غطستي
أعرف أين أنا ..
أحلام .. أحلام .. أحلام
أسماك منتصف الليل .. »

وفي مقطوعة أخرى ينعى على روحه انها تختبىء في جسده، ويودع ذكراه الحقيقة في قلوب بعض الاصدقاء :

« في قلوب بعض الاصدقاء
عرفت أن أبني لنفسي مخبأ
فالعالم في ردائه الاحمر رداء القاضي
يا كوكب مولدي المزدوج
انك تخلط روحي بجسدي
ولقد فرضت عليّ ثمناً باهظاً
تكفيراً عن براءتي .. »

ولا يكف عن لوم المجتمع على تجاهل شخصيته «تحت معطف من الروايات» :

« ظننتم أنكم تستطيعون ان تبدلوا شخصي
وجعلتم مني شخصين
لكن الآخرين لايؤمنون بما يعطى
إن لم يصدر عنهم .
فليمض بسلام هذا القرين ، وليتحرك طوع هواكم
ذلك شأن الدمى
لأن السلوك الذي يتخفى فيه فتى،
يتقدم كسيارة في الليل اطفأت جميع مصابيحها
مختبئاً .. اني اعيش مختبئاً تحت معطف من الروايات
ألصق من الصمغ
ولأترك على الاطلاق أثراً في رمالكم .. »

فليس لجسمي ثقل . . »

وتمتد لعبة « الاستخفاء » في نظره حتى تشمل الحب :

« أيها الحب يامن اشتد حرصك على التظاهر بالجنون
إني أعرف تواطؤك مع الدهر الكاذب
فتصيب الجسد .
بلا توقف توضع ضحية جديدة في القالب
وعلى العيون الهائجة تثبت عصاباتك
انك تسوق الى العالم لجة عاشقة
محيطاً مقلوباً .
سم يحاكي لذائذ النوم
فيه غمست سهمك ونظرتك أيضاً
وليس علينا أن نعاني تعذيبك فحسب
بل ان نشكرك .
عهدك مع الموت يتستر بحجاب من السحر
على عصفك
وهدفك وأنت تصوب سهمك وتعيد تصويبه
ليس هو القلب دائماً . . »

وأما « الدهر الكاذب » الذي تواطأ معه الحب ، فقد مضى ينخر غادراً جسم الانسان ، مستتراً « بالجلد الكذوب » ، دافعاً الدم « الى الفرار ليلحق بمنبعه » مما يضطر المرء الى أن يلوذ بالنوم.. :

« أحيانا ، ايها الزمن القاسي ، تسفر عن آلتك

ان معصمنا وقد قرضته حشرة الساعات
يشبك بعيداً عنا شرايينه الزرقاء الصافية
نهراً في وطن لاتمسه مخاوفنا
وتحت الجلد الكذوب حيث اوتسمت لياتها
مازجة مداداً احمر بملح ماء البحر
ان الدم لايسعى لأن يدرك مجراه
مصيره الفرار ليلحق بمنبعه .
انه يروعني ونبضي مع ساعتي يخفق
أنا لست أجرؤ على أن انظر الى مسرى حياة هذه او ذاك
فألوذ بك .. أيها النوم .. وفي جبن أفرغ ..
وامتطى صهوتك وأطير الى مهرجان الجن .. »

ولقد اشتهرت عبارة لاذعة لكوكتو في وصف الجمال : « إني أكذوبة تقول الحق دائماً » . وهي الجملة التي اوحت إلى الاديب الروائي « كلود مورياك Claude Mauriac » أن يعنون كتابه عن أديبنا « كوكتو او صدق الكذب J. Cocteau ou la vérité du mensonge » .

* * *

واذا كان « جان كوكتو » — لفرط ولعه بالاستخفاء — يلوم الناس على انهم أخطاؤه .. فهل استطاع هو أن يعرف نفسه ، وأن يجد شخصيته وفنه ؟

لقد سار اولاً على نهج « الرومانسية » التي انبعثت في اواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي حول الشاعر « ادمون روستان E. Rostand » ثم انفصل عنها . ومر بالمدارس المستحدثة التي نشأت بعد ذلك . مر بالتكعيبية والدادية والسريالية

دون أن يستقر على مذهب منها . فلقد كان — كما قلنا — سريع التقلب ، تواقاً الى أن يطلع على نفسه وعلى رفاقه في كل مناسبة بما يدهش ويذهل. وكم أثارت مواقفه الغريبة المتعاقبة عواطف النقد عليه وفضول الجمهور !.. غير أنه نعم هكذا بما كان ينشد من سطوع أضواء المجتمع المثقف على حركاته .

ولكن الشعر ليس مجرد لهو وبهرج زائف وبدع يبتدعها طفل عاقل مدلل عصي على النظام .. ليست تلك المحـــاولات هي التي ستبقى من أدب « كوكتو » . بل لقد عفا عليها الزمن فعلاً ، وأنكر « كوكتو » في شيخوخته الكثير منها ، على أنها كانت دليلا جدياً على حرية فنان مضطرم بالثورة .. يأبى الجمود والقيود .

والحق أن « كوكتو » قد انتفع بتجاربه تلك التي لم تكن عبثاً كلها . فقد علمته رياضة التلاعب بالأشياء أن يلج بعض أسرارها ، وعلمه تصيد التفاصيل أن يكشف بعض مكامن السعادة في أركان الواقع ومدارج الأحلام .

ومن السهل أن نميز في أشعار « كوكتو » الاولى أصــــداء « رونسار Ronsard » و« بودلير Boudelaire » و« مالارميه Mallarmé » و« أوسكار وايلد O. Wilde » .. لقد التقت في قريحته الفذة تقاليد عدة من قرون عديدة من الشعر الأوروبي، بيد أنه يجد في ذاته من الثقة والثراء مايدفعه الى أن يبذر ذلك التراث تبذيراً ، وأن يعرض علينا بضاعة يزعم أنها جديدة دائماً ..

يقول « كوكتو » في كتابه « سر المهنة Le secret professionnel » :

« عندما نرى — في مثل لمح البصر — كلباً او عربة او بيتاً للمرة الأولى ، ننوه بكل مايقدمـــه المشهد من طابع خاص مجنون مضحك جميل . وبعد ذلك فوراً ، تمر العادة مراراً على هـــذه الصورة القوية بممحاتها ، فنداعب

الكلب ، ونوقف العربة ، ونسكن البيت . ولا نعود نراها . وهاهو ذا دور الشعر : إنه يكشف الحجاب . إنه يظهر الأشياء عارية ، في نور يهز الغافل ، يظهر تلك الأشياء المدهشة التي تحيط بنا ،وتسجلها حواسنا تسجيلاً آلياً .. »

ويميل شعر « كوكتو » بوجه عام الى التلميح في التعبير ، فمعظمه مقطوعات قصيرة – كما ان القصائد الطويلة تنقسم بوضوح الى أجزاء صغيرة – وكل مقطوعة قائمة بذاتها .. ينعكس في داخلها ماترسله عناصرها اللامعة من إشعاع ، بحيث تكون وحدة مستقلة . سرعان ماتنعزل عن الأشياء ذوات الأسماء المعروفة أوعن الكائنات ذوات الأجسام المألوفة ..

لقد آنس « كوكتو » في لوحات صديقه الفنان « بيكاسو » خفقات قلبه من الريشة المسحورة من واقعه العرضي نحو جوهره الأصيل أو مثله الأفلاطوني .

وأما بروق الحس .. فقد يسجلها الشاعر تسجيلا خاطفا ، ليتخذ منها إشارة لمعنى من المعاني تقتنصه بديهته المتحفزة الى كل مامن شأنه أن يدهشها ، وتضيفه الى غيره ، حتى ينتظم في يده عقد من الرموز في سلك من القيم المبتكرة المعاصرة .. عقد خاص لاعلاقة له مباشرة بالواقع الخارجي .

واذا كان « كوكتو » قد صدر في أجزاء كثيرة من منظوماته عن الترف العقلي والألعاب البيانية – مما لايمكن تذوقه الا في قراءته باللغة الفرنسية – فاننا نستطيع مع ذلك أن نلمس ماصدر عنه في خير قصائده من شعور انساني رقيق مرهف . تمادى به حينا الى إدمان « الأفيون » . وهو هذا الشعور الذي يتسمع سريان الدم في شرايين الشاعر ، ويترصد المجهول ، ويجوس خلال أحلام النائم ، فيتقمص الأطياف ، ويمرح مع الملائكة ، ويستعيد الطفولة ، ويلاحق الذكريات ليبدلها ويصوغها من جديد .. ويتأمل فصول الحياة والحب والموت .. والإرادة الحرة لإنسان القرن العشرين

أبو عامر بن شهيد

سامي الكيالي

الشاعر ابو عامر بن شهيد من فحول شعراء الاندلس وادبائها المبرزين .

عاش حياة خصبة مترفة تشع بالاضواء ..

كان ابوه من كبار الوزراء في الدولة العامرية، ومن اصحاب الثروات الضخمة ، فحين ترك الوزارة وأوى الى قصره يعيش حياة الزهد والتقشف كان في وفاضه اربعمائة الف دينار نقداً ومائة الف من ذهب آنية !!

وكان يغص قصره ، الى جانب زوجاته الشرعيات ، بنات الجواري الصقليات ...

في هذا الجو السحري نشأ ابن شُهَيْد يغوص في بحر من المباهج ، وفي فيض من اللذاذات .

وقد حاول أبوه ، بعد أن ركن الى الزهد والتقشف ، أن يفرض عليه الحياة المتزمتة الجافة ، فلم يفلح ..

كان الشاب قد انغمس في حياة اللهو والمجون ، ولم يترك ظاهرة من ظواهر الحياة المترعة بالافانين الا عبّ من افاويقها واصطبغ إهابه بتلاوينها.

ومرت به الايام وهو بين مجون الحياة وأزاهير الأدب، يأخذ من هذه تارة ومن تلك تارة اخرى، فكان ادبه صورة من حياته المشعة ومن حياة مجتمعه المترف.

وما هي الا سنوات ، وهو في خضم هذا المعترك الجميل ، حتى أصبح من الأدباء المرموقين والشعراء المبرزين ..

ولم يكد يحلق في الاجواء ، ويبز اقرانه من الادباء والشعراء حتى كثر حاسدوه وكثر مبغضوه ..

والحسد ، سجية طبيعية في البشر ، وخاصة بين الشعراء الذين يعيشون في الحرمان ، فتنطلق ألسنتهم بالنقد والتجريح .. تارة بالحق واحياناً بالباطل ...

ويفيد الأدب الكثير الكثير من هذا اللهب الذي ينطلق من حقدهم الثائر براكين متفجرة ...

مرّ ابن شُهَيْد بهذه الازمة الخلقية حتى مع خلّص اصدقائه فلم يعبأ بمقالة خصومه . وكان سبيله لنقض تخرصاتهم الابداع وكتابة شيء جديد لم يستطعه معاصروه ليبرهن لهم على انه في القمة وانه لا يقل عمن تقدمه من كبار الادباء والشعراء ..

كيف السبيل الى ذلك ؟

لقد خلا الى نفسه وأخذ يفكر ..

وإذا بخياله المرهف يجمح به الى « وادي عبقر » .. الى الحديث مع الشياطين الذين ألهموا أنداده تلك القصائد التي خلدت مع الاجيال .. فكتب رسالة « الزوابع والتوابع » وهي آية في البلاغة ، وآية في الهزء والسخرية ..

والتوابع : جمع تابع وهو الجني

والزوابع : جمع زوبعة وهي اسم شيطان او رئيس الجن ..

واذ كان لكل شاعر شيطانه أخذ ابن شُهَيْد محدثنا عن شيطانه وكيفية اهتدائه اليه ..

ففي فاتحة هذه الرسالة التي وجهها الى أبي بكر ابن حزم يبين لنا بدء تعلقه بالأدب ، وأخذه عن الاساتيذ كل ماينمي ثقافته ، وعن هوى اشتد به كلفه ، ثم هجره عن ملل ، وفي فترة الهجر هذه مات من كان يهواه ، فجزع وأخذ يرثيه بقوله :

تولّى الحِمامُ بظَبيِ الخدور وفازَ الرّدى بالغزال الغرير
وكنتُ مَلَلْتُكَ لا عن قِلىً ولا عن فساد ثوى في الضمير

وهنا ارتجّ عليه القول فاذا بفارس بباب المجلس ، على فرس أدهم ، قد اتكأ على رمحه وصاح به : أعجز بافتى الإنس ؟

أجاب : لا وأبيك .. للكلام احيان .. وهذا شأن الانسان ..

فقال له : قل بعده :

كمثل مــلال الفتى للنعيم اذا دامَ فيه ، وحالِ السرور

وبعد أن أثبت اجازته قال له ابن شُهَيْد : بأبي انت .. من أنت ؟

قال : انا زُهَير بن نُمَير من أشجع الجن ..

فأنس به ، واصطفاه صاحباً وخليلا .. وبدأ يقص عليه قصته مع منافسيه وحساده . فلم يكد يسمع قصته المشجية حتى طمأنه وقال له : لاعليك. وما هي إلا لحظات حتى طار به على جناحه الى وادي الشياطين . ليجمعه مع زملائه من الشعراء الخالدين ..

ويلتقي بشيطان امرىء القيس وشيطان طَرَفة ، ثم ينتقل الى ابي تمام والبحتري وابي نواس والمتنبي فيسمعهم شعره ، ويستمع اليهم ويساجلهم ويعارضهم ، فما يكاد يعرض بضاعته حتى يأخذ الاجازة منهم فيطمأن ، ويشعر انه انتزع من خصومه راية الشعر .

ولا مجال لتلخيص هذه الرسالة ذات المنازع المختلفة التي تنم على خصب خياله وقوة بيانه ، فحسبنا منها هذا المقطع الذي يصور لنا انتقاله من قرطبة الى بغداد واجتماعه بشاعر الخمرة ابي نواس .

* * *

يقول ابن شُهَيْد على لسان شيطانه زهير ، إنه ضرب الأدهم بالسوط ، فسار به حتى انتهى الى جبل دير حنة ، فلم يكد يدخله حتى شق سمعه قرع النواقيس . فصاح : نحن من منازل ابي نواس ورب الكعبة العلياء .. فسرنا نجتاز أدياراً وكنائس وحانات حتى انتهينا الى دير عظيم تعبق روائحه ..

فوقف زهير ببابه وصاح : سلام على أهل دير حنة .

ويسأل ابن شهيد : وهل صرنا بذات الاكيراح ؟

قال : نعم .. واقبلت نحونا الرهابين، مشدودة بالزنانير ، قد قبضت على العكاكيز ، بيض الحواجب واللحى .. إذا نظروا الى المرء استحيا .. مكثرين للتسبيح ، عليهم هَدْيُ المسيح ..

فقالوا : أهلاً بك يازهير من زائر .. وبصاحبك أبي عامر ... مابُغيتك؟
وحين أفصح لهم عن بغيته قالوا : انه لفي شرب الخمرة .. منذ أيام عشرة .. ومانوا كما منتفعين به .

أجابا : وليكن ذلك ..

فنزلنا ، وجاؤوا بنا الى بيت قد اصطفت دنانه ، وعكفت غزلانه ، وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة(١) ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وبيده كأس وحواليه صبية .

فصاح به زهير : حياك الله أبا الإحسان .

فجاوب بجواب لايعقل لغلبة الخمر عليه .

فما كان من زهير إلا أن التفت الى ابن شهيد وقال له : اقرع اذن نشوته بإحدى خمرياتك ، فربما تنبه لبعض ذلك .

فانشدهم :

ولرُبَّ حانٍ قد أدرتُ بديره ... خمرَ الصبا مُزِجت بصفو خموره
في فتية جعلوا الزِّقاق تكاءهم ... مُتصاغرين تخشعاً لكبيره
والى عليَّ بطرفه وبكفه ... فأمال من رأسي لعبَّ كبيره
وترنم الناقوسُ عند صلاتهم ... ففتحتُ من عيني لرجع هديره
يُهدي الينا الراح كلُّ مُعصفر ... كالخشف خفّره التماح خفيره

وقد كان لهذا الشعر أثره في نفس أبي نواس فصاح من حبائل نشوته :
أابن شهيد ..؟

اجاب : انا ذاك ..

(١) السبلة : ما على الشارب من شعر .

فاستدعى ماء قراحاً شرب منه ، وغسل وجهه حتى اذا أفاق اعتذر بما هو عليه .

وهنا ادركت ابن شُهَيْد المهابة ، وأخذ في اجلاله لمكانته في العلم والشعر .. وحرص على ان يستمع اليه ، فأنشد ابو نواس قصيدته التي يقول فيها :

يادير حنّة من ذات الأكيراح ... من يصح عنك فاني لست بالصاحي

لايدلفون الى ماء بآنيـــة ... الا اغترافاً من الغدران بالراح

واتبعها بثانية وثالثة وهم في جو يعبق بالشعر والخمر .

يقول ابن شُهَيْد بعد ان سمع قصائده : « كدت والله اخرج من جلدي طرباً » ...

وبعد أن سمع أبو نواس شعري قال : اذهب فانك مجاز . فانصرفنا عنه وانحدرنا من الجبل .

. . .

وكما ظفر باجازة من الشعراء ظفر بها من الكتاب وفي طليعتهم الجاحظ .

والرسالة مليئة بالصور الكاريكاتورية ذات المنازع الفكهة والسخريات المرة ، وهي تنم عن امتلاكه ناصية البلاغـــة ، ولا يضير الرسالة مافيها من تقعر ، فقد كان التعقيد لوناً من قدرة الكاتب في عصره ، وهذا ماجرى عليه الكثيرون وفي طليعتهم ابو العلاء في رسائله الاخوانية وتأملاته الفلسفية .

بلغ ابن شُهَيْد الأوج في رسالته « التوابع والزوابع » هذه الرسالة التي اختلف النقاد حولها . منهم من قال إن ابن شُهَيْد احتذى المعري في رسالة الغفران، ومنهم من قال العكس تماما ، لا لشيء الا لتشابه موضوع الرسالتين .

فمن رأي الدكتور احمد ضيف أن « التوابع والزوابع » محاكاة لرسالة الغفران ، وان ابن شُهَيْد كان يقلّد أبا العلاء لأنه ادرك عصره ، ولأن شهرة ابي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب ، وكان أهل الاندلس يقلدون أهل المشرق في كل شيء .

ويعارض الدكتور زكي مبارك هذا الرأي ؛ وحجته ان رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة . وصار من المرجح عنده ان يكون ابو العلاء هو الذي قلّد ابن شُهَيْد .

ويرى الاستاذ بطرس البستاني انه غير مستنكر ان يكون ابو العلاء قد اطلع عليها ، وان الشبه الذي نجده بين الرسالتين لا يحرم ابا العلاء حق التأليف .

والذي أراه ان فكرة التقليد غير واردة قطعاً وإلاّ نكون قد جردّنا أبا العلاء من أخصّ خصائص عبقريته ، واعتقد انه لو اطلع عليها لما خلا ابن شُهَيْد من معابثته ، ولما خلت الرسالة من بعض لمزاته !

واذا أردنا الانصاف قلنا : بالرغم من تشابه الرسالتين ، فان لكل واحد من هذين العملاقين عمله الادبي الفذ .

ولا يسمح المجال هنا بالمقايسة وبيان خصائص كل رسالة ، فحسبنا الالماع الى بعض صور من رسالة « التوابع والزوابع » لهذا الاديب عذب الشخصية الذي عاش في جوّ يختلف كل الاختلاف عن جوّ ابي العلاء ، والذي تمرّس بحياة عابثة أبعد ما تكون عن الحياة التي عاشها رهين المحبسين .

• • •

فمن الصور الطريفة التي أراد ان يغمز بها بعض الوزراء حديثه عن بغلة ابي عيسى .

وقد كان ابن شُهَيْد يطمع بالوزارة ، وكانت الوزارات في العهود القديمة تسند الى فحول الكتاب وأمراء البيان ، وكان ابن شُهَيْد في طليعتهم . ولكن صممه قعد به عن تسنم هذا المركز ، وقد حزّ ذلك في نفسه فأراد ، على مايظهر ، ان يغمز من قناة من شغل هذا المركز بعد ان غمز من قناة الأدباء والشعراء وغيرهم ممن انتقصوا من قدره وجرحوا عزته وكبرياءه ، فلم ير الا ان ينتقل ، مع شيطانه ، الى بقعة تكثر فيها حمر الوحش والبغال.

يقول : « ومشيت يوماً أنا وزهير بأرض الجن ايضاً ، نتقرّى الفوائد ، ونعتمد أندية أهل الأدب منهم ، إذ اشرفنا على واحة غناء ، تفتر عن بركة وماء ، وفيها قطيع من حمر الجن وبغالهم ، قد أصابها الخنون ، فهي تصطك بالحوافر ، وتنفخ من المناخر ، وقد علا شحيجها ، ونهاقها ، فلما بصرت بنا أجفلت الينا وهي تقول : جاءكم على رجليه ... »

وبعـــد حديث عن شعر البغل وشعر الحمار وتحكيمه في أيهما أجود واعتذاره عن الحكم ، يجري بينه وبين البغلة الحوار الآتي :

قالت لي البغلة : أما تعرفني ابا عامر ؟

قلت : لو كانت ثمّ علامة ؟

فأماطت لثامها ، فاذا هي بغلة ابي عيسى ، والخال على خدها ، فتباكينا طويلاً ، وأخذنا في ذكر أيامنا فقالت :

ماأبقت الأيام منك ؟

قلت : ماترين ؟

قالت : شبَّ عمرو عن الطوق ، فما فعل الأحبة بعدي،أهم على العهد ؟

قلت : شبّ الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتنكرت الخلان، ومن إخوانك من بلغ الأمارة ، وانتهى الى الوزارة .

فتنفست الصعداء وقالت : سقاهم الله سبل العهد ، وان حالوا عن العهد ونسوا أيام الود ، محرمة الأدب الا ما أقرأتهم مني السلام .

قلت كما تأمرين وأكثر .

• • •

وصورة ثانية أطرف حين يقسو على شيخ من النحاة فيجعل الاوزة الحمقاء تابعة له . فيصفها وصفاً في غاية الدقة والتصوير .

يقول : « وكانت في البركة بقربنا أوزة بيضاء شهلاء ، في مثل جثمان النعامة ، كأنما ذر عليها الكافور ، اولبست غلالة من دمقس الحرير ، لم أر أخف من رأسها حركة ، ولا أحسن للماء في ظهرها صباً ، فترى الحسن مستعاراً منها ، والشكل مأخوذاً عنها » .

لقد ضاقت الاوزة بالحكم الذي صدر فصاحت بالبغلة تقول :

لقد حكمتم بالهوى ، ورضيتم من حاكمكم بغير الرضا ..

ويسأل ابن شهيد تابعه : ما شأنها ؟

فيجيبه زهير بقوله : هي تابعة شيخ من مشيختكم ، تسمى العاقة ، وتكنى أم حفيف ، وهي ذات حظ من الأدب ، فاستعد لها .

فقلت : « أيتها الأوزة الجملة ، العريضة الطويلة ، المحسن بجمال حدقتك واعتدال منكبيك ، واستقامة جناحيك ، وطول جيدك ، وصغر رأسك ، مقابلة الضيف بمثل هذا الكلام ، وتلقي الطارىء الغريب بشبه هذا المقال ؟ وأنا الذي همت بالأوز صبابة ، واحتملت في الكلف بها عض كل مقالة ، وانا الذي

استرجعتها الى الوطن المألوف ، وحببتها الى كل غطريف ، فاتخذها السادة بأرضنا واستهلك عليها الظرفاء منا ، ورضيت بدلا من العصافير ، ومتكلمات الزرازير ، ونسيت لذة الحكم ، ونقار الديوك ونطاح الكباش » .

وحين سمعت هذا الاطراء ، دخلها العجب من كلامي ، ثم ترقصت وقد اعترتها خفة شديدة في مائها ، فمرة سابحة ، ومرة طائرة ، تنغمس هنـا وتخرج هناك ، وقد تقبّب جناحاها ، وانتصبت ذنابها ، وهي تطرب تطريب السرور ، وهذا الفعل معروف من الأوز عند الفرح والمرح ، ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها « وعملت بجدافيها » واستقبلتنا جانبة كصدر المركب وقالت :

« ايها الغار" المغرور ، كيف تحكم في الفروع وأنت لاتحكم الاصول ، ما الذي تحسن ؟

قلت : ارتجال شعر واقتضاب خطبة

قالت : ليس عن هذا أسألك

قلت : ولا بغير هذا اجاوبك ..

ويطول الحوار بينها دون طائل الى ان يسألها :

يا أم حفيف : بالذي جعل غذاءك ماء ، وحشا رأسك هواء ، الا انما أفضل : الأدب أم العقل ؟

قالت : بل العقل ..

قلت : هل تعرفين في الخلائق احمق من أوزة ! .. فاطلبي عقل التجربة ، اذ لاسبيل لك الى عقل الطبيعة ، فاذا أحرزت منه نصيباً ، وبؤت منه بحظ ، فحينئذ ناظري في الادب .

وابن شُهَيْد كثير الاعتزاز بأدبه واسلوبه ، ولم يكتب رسالته (التوابع والزوابع) إلا ليدل على أنه لايطاوله أحد في أدبه ، وانه سيد البيان وأمير النثر والشعر ، فحين قرأ على الجن وصف الحلواء واستحسنوا الرسالة وقالوا :

« ان لسجعك موضعاً من القلب ، ومكاناً من النفس ، وقد اعرته من طبعك وحلاوة لفظك ، وطلاوة سوقك ، ما أزال افنه ، ورفع غبنه ، وقد بلغنا انك لاتجارى في ابناء جنسك ، ولا يخلّ من الطعن عليك ، والاعتراض لك . فمن أشدهم عليك »؟

فيجيب ان أشد أعدائه جاران تصاقب دارهما داره ، وثالث امتطى ظهر النوى ، فألقت به في سر قسطه ، حيث ينتضى عليه لسانه عند « المستعين » وتساعده على افكه زرافة من الحاسدين .

وقد غمز هؤلاء الخصوم بقوله :

وبلّغت اقواماً تجيش صدورهم
عليّ وانّي منهم فارغ الصدر
أصاخوا الى قولي فأسمعت معجزاً
وغاصوا على سري فأعيام أمري

الجراد

أحمد ابراهيم الفقيه

– طرابلس – ليبيا



تقدم « المعرفة » الى قرائهـــا ، وبخاصة في المشرق العربي ، هذه القصة التي نشرتها اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب في ليبيا عام ١٩٦٦ في كتاب (البحر لاماء فيه) ، ليطلعوا على نموذج من الانتاج الأدبي في هذا البلد العربي . و« المعرفة » إذ تقدم على مثل هذا الاقتباس غير المألوف ، تهدف منه أولاً وآخراً التعريف بلون من ألوان الانتاج الأدبي مازال ضيق الانتشار لايتخطى في كثير من الأحيان حدود القطر الذي ظهر فيه .

« التحرير »

ذات مساء ..

كان كل شيء في القرية يسير في نفس الخط الذي يسير عليه كل يوم . تماماً كما كان بالامس وأول أمس ، ومنذ عام مضى .

عمران يزاول مهمة رفع الماء من البئر بالدلو والبقرة، يقدم لمزروعاته وجباتها اليومية، كان يمشي ويرجع خلف البقرة عبر المجرى المحفور في الارض . وكان الحبل الذي يجر على (البكرة) تتصاعد منه نغمة حلوة رتيبة ، وعمران يغني ، ويستحث البقرة ، ويهش عليها بالعصا ولا يضربها ويواصل رحلته التي لاتنتهي عبر مسافة لا تزيد بأية حال عن خمسة امتار !!

و « المبروك » الفاس بين يديه . والعرق ينز من جبهته العريضة . وأنفاسه تتردد مجهدة مبهورة ، وهو يعزق الارض في بستانه الصغير .

والحاج سالم يحرس حقله الذي يموج بسنابل القمح والشعير ، يطرد حماراً من هنا ، ويصيح في قطيع أغنام من جهة اخرى ، ويرمي بالحجارة سرباً من العصافير نزل في جهة ما من الحقل . وأحياناً يجلس لينصب « المنداف » الكبير في المكان الذي وجد به آثار أقدام ذئب او ثعلب يتسلل تحت جنح الليل الى حظيرة الدجاج .

وكان أهل القرية يزاولون اعمالهم اليومية . يتفرقون هنا وهناك . هذا يسوق قطيعاً من الاغنام وقد ضاع صوته في صياحها المتواصل — ما .. ماع .. ما .. وآخر يشمّر عن ساعديه ، ويفتح قدميه ، واقفاً على حافة احد الآبار يرفع

الماء وبدلقه في احواض من الحجر لجمـــاله الكثيرة التي راحت تتدافع وتشرب الماء بنخير عال . في حين يهمهم هو بصوت مجهد . – ياهيم .. ياهيم .. ياهيم كل شيء في القرية كان هادئاً ، طبيعياً ذلك المساء .

وفجأة (وكم هو شيء نادر في القرية ، اندر من الذهب هذا الذي نسميه فجأة) وفجأة أتى أحد الرجال مهرولاً ، واخذ يزرع صياحه في القرية ، كأنه النذير . كان صوتاً مشحوناً بالحرقة واللوعة والخوف وهو ينبىء الناس في القرية بان « الجراد » على ابواب قريتهم الصغيرة . ان ارجاله التي لاحصر لها تنام هذه الليلة بالبطاح القريبة التي لاتبعد عن القرية سوى خمسة كيلو مترات .

وكأنما استحال الناس في القرية الى مجموعة من المجانين يجرون هنا وهناك في ذعر وخوف .

كان واضحاً ان كل انسان في القرية يشعر بأن وحشاً مخيفاً يتربص له .. في كل زواية وكل منعطف ، وتحت كل جذع شجرة .

وبعض أهل القرية ذهبوا الى شجيراتهم ومزروعاتهم يكحلون اعينهم بها ، ينظرون اليها في حنين ولهفة ، فمؤكد أنها مع شروق الغد ستستحيل على يد الجراد الى مجرد ذكريات ليس الا . والحاج سالم ذهب ليقف على رأس حقله ينظر اليه في حسرة ولوعة ، لم يغالب حتى الدمعة التي ترقرقت في عينيه ، ولاول مرة يرى الطيور تنزل في الحقل فلا يرميها بالحجارة ، ويرى الشياه تتقدم نحو الحقل فلا يصيح فيها بصوته المشروخ ، كان واضحاً ان خبر الجراد يشل كل شيء في الحاج سالم .

وكان لاحديث في القرية الا عن الجراد . ماتت حكايات الشيوخ على افواههم . والنساء اللائي يتجمعن في أكوام أمام مستوصف القرية أو على البئر عندما يملأن الماء نسين في تلك اللحظة أحاديثهن الابدية عن النساء الاخريات ، أرحنهن

من السلق في مراحل السنتين . ولم يعد يشغل الجميع الا هذا الغول الهائل الذي اسمه « الجراد » .

الجراد الذي سيبدأ مع شروق شمس الغد غزوه المدمر لقريتهم الصغيرة ، الجراد الذي سيستبيح كل شجرة في القرية فيعريها من حلتها الخضراء ، يجردها من ظلها الوارف ، يحيلها الى أعواد يابسة ميتة . الجراد الذي سينتزع اللقمة من فم الحاج سالم وعائلة المبروك وابناء عمران وكل انسان في القرية . فهم جميعاً لقمتهم في أشجارهم وزراعتهم ، التي سيجعل منها الجراد .. أثراً بعد عين .

الجراد الذي سيحيل كل شبر اخضر في ارضهم الى جدب وخراب والجراد .. الجراد .. الجراد .. الجراد .. الجراد

ثمة أشياء كثيرة تجعل أحاديث الناس في القرية تتوحد كأن يموت انسان ما ، او يقبض البوليس على شخص في القرية متهماً بجريمة ما .. او تصاب بالجنون امرأة عجوز . الا ان الشيء الذي يوحد أحاديثهم ، ويوحد معها مشاعرهم ، ومصائرهم ، والذعر في خطواتهم وفي أعينهم ، فهذا مالم تشهده القرية في تاريخها الطويل الا هذا المساء . فالانفعال كان واضحاً في نظراتهم .. في طريقة كلامهم .. في خطواتهم عندما يسيرون عبر دروب القرية .

وعلى عادة رجال القرية دائماً عندما يدق الخطر ابواب قريتهم الصغيرة ، يشعرون دائماً بضرورة اجتماعهم بالمسجد . لهذا فبمجرد ما ارتفعت عقيرة عبد النبي بأذان المغرب . وحي على الصلاة .. حي على الفلاح .. حتى هرول كل رجال القرية الى المسجد . وكان المسجد لا يشهد مثل هذا التزاحم الا في حالتين ، عندما يكون هناك عيد ، وعندما يكون ثمة شعور بالخطر .

وأمام المسجد ، كان أهل القرية يقفون في حزمة واحدة . كانوا أحياناً

يتكلمون في صوت واحد . أصواتهـــم غاضبة . ووجوههم يغشاها حزن عميق . وأيديهم التي نفرت عروقها الزرقاء يلوحون بها في عصبية ظاهرة . .

وكان بعض الشيوخ قد مضى في سرد حكايات قديمة عن الجراد . حكى أحدهم عن الجراد عندما هجم على قريتهم ذات مساء بعيد ، ليحيلهـــا من قرية مزهوة بوداعتها وجمالها وخضرتها كالعروس ، الى أرض خراب ينعق فيها البوم . ومرت سنة طويلة قبل ان تسترد القرية ثوبها الذي نضاه عنها الجراد . وبالـــغ شيخ آخر فحكى حكاية قال أنها حدثت قديماً ؛ عن عشرة من الرجال كانوا ينامون ذات ليلة في مكان ما باحدى الشعاب . وكان أن هاجمهم الجراد وهم نيام وفي الصباح لم يبق لهم على أثر ، (نعم . . حتى العظام أكلها ياأخوان) ثم يأخذ الحيط الفقي «مصباح» ليتكلم بطريقته الخاصة عن الجراد ، فكان يرفع يديه الى أعلى كأنه يتقي بها صاعقة ستنزلها السماء فوق رأسه ، ويفتح عينيه على وسعها في انبهار كما يفعل دائماً عندما يستحضر شرنوخ وشنبروخ وغيرهما مما يسميهم اصدقائي ملوك الجان . ويتطاير لعابه وترتج لحيته البيضاء الكثيفة ، ويمضي في كلامه ، بأنه عندما تقضي ارادة الله العلية بانهاء هذا العالم فان ذلك سيكون على يد طوفان عظيم من الجراد ، يرسله الله لفناء العالم ، يأكل الرجال والنساء والاطفال ، ويأتي على الحيوان والاشجار ويلتهم القصور (ومكين الجديد) أيضاً .

وحكايات فظيعة عن الجراد وخطر الجراد . . والجراد . الجراد . الجراد . وكان الرجال الذين يقفون بوجوههم السمراء الغاضبة ، يشعرون بالمأساة تزداد عمقاً في قلوبهم . كانت أحاديث الشيوخ تشحن اعماقهم بمقادير هائلة من المقت لهذا الجراد . يشعرون بأنه لا الموت ولا الطاعون ولا كل مصائب الارض ، بامكانها ان تعادل مصيبة الجراد .

وتمتم رجل عجوز والشعور بالخطر يهز كل شيء فيه :

— اللهم لطفك يارب . اللهم عفوك يارب .

وارتفع صوت يتساءل في غضب :

— والآن ماذا فكرتم لنا يارجال ؟؟

وتبعه آخر :

— نعم يارجال ، ماالعمل يارجال ؟؟

وانبثقت اصوات كثيرة ، الا ان جميعها تتساءل ، كان الجو مشحوناً باشارات الاستفهام التي تعقف رؤوسها في حيرة ، ماالعمل ؟ ما العمل؟ ماالعمل؟

وكان اول اقتراح من الفقي مصباح الذي قال انه لايجوز ان يفكروا في غيره وهو ان يذهبوا جميعاً هذه الليلة الى ضريح سيدي ابي قنديل .

وهنالك يضيئون له الشموع ، ويطلقون له البخرة الجاوى والفاسوخ واللوبان ، ويتوسلون اليه بجاهه عند الله أن يبعد عن القرية هذا الخطر . وبعدذلك بامكانهم أن يرجعوا الى بيوتهم وينامو هانئين،فسيدي أبو قنديل سوف لن يخيب رجاءهم ، سيبعد الجراد عن طريق قريتهم في التو والحين .

الا ان اقتراح الفقي مصباح سرعان ما ضـــاع في غمار الاقتراحات الاخرى ، التي كان من بينها اقتراح عمران الذي انصتوا اليه بتمعن ، ذلك لأن عمران في الاربعين من عمره اي أنه تجاوز سن الطيش وهـذه ميزة . والاخرى انه لم يصل بعد الى أرذل العمر وهذه ميزة اكبر . وكان اقتراحه يقضي بأن يضرموا النار في جهات متفرقة من البلدة فربما يتخذ الجراد وجهة اخرى غير وجهة القرية عندما يرى الدخان . ولانه ليس هناك ما يؤكد ان الجراد سيتخذ عنـدما يرى الدخان وجهة اخرى،فانهم سرعان ما عادوا يمدون اعناقهم ونظراتهم في انتظار اقتراح آخر ، رغم عمران الذي كان يحرك قبضته ويحرك رأسه ايضاً في غضب ،

مدافعاً عن اقتراحه. وكان المبروك يغرس رأسه الى اسفل ولم يقل شيئاً. جسمه فقط كان يتململ في غير ارتياح وكأنه يجلس على قرية نمل. (والمبروك في الخامسة والعشرين من عمره، جبهته عريضة، ووجهه يضرب الى السمرة، وعيناه كالشعلتين تعلوها حواجب خفيفة الشعر ، والده مات وترك له أسرة كبيرة وبستاناً صغيراً يستنزف جهد المبروك اليومي وهو بالكاد يتمكن عن طريق البستان من انتزاع لقمة العيش للاسرة الكبيرة) .

وكانت الفكرة التي تتردد بين جدران ذهنه ، تبدو له احياناً مضحكة. كان خائفاً من انه لو قالها لضج الجميع بالضحك ، وربما خامرهم الشك في سلامة عقله ...

كان ما يزال يفكر وهو ساهم ساكت ..

ولكزه احد الجماعة لينبهه الى انهم يسألونه رأيه في الاقتراح الذي قاله الحاج سالم ، والذي يدعوهم ان يستعدوا لمطاردة الجراد القادم غداً الى القرية ، بأحداث صخب وضجة بطرق الحديد ، وضرب الدفوف، ودق النواقيس، ورن الزجاجات الفارغة ، وعن طريق هذه الضجة الصاخبة سوف تغادر ارجال الجراد القرية . بمجرد الوصول اليها وتسلم بذلك القرية .

وكان هذا الاقتراح وحده ، الذي مازاغت النظرات ولا امتدت الاعناق والآذان في انتظار غيره . .

فالقوم بدأوا يفكرون –جدياً– في العمل به . ولهذا هم يسألون المبروك. وبدا له أن هذا الاقتراح ايضاً سخيف . ونظر الى وجوه القوم . كانت سحناتهم مغبرة ، وبشرة وجوههم الضاربة الى الاسمرار مشدودة في حزم. . وتراءى له في هذه اللحظة ان الفكرة التي تتردد بين جدران ذهنه ، ليست بأية حال من

الاحوال استخف بما قاله الحاج سالم . وعندما قال له مزارع طويل .. شاربـــاه كذلك طويلان . .

— تكلم يامبروك ماذا بك . انت ساكت هكذا لماذا ؟

ألم تعجبك فكرة الحاج ، اتراها لاتنفع ؟

وجد المبروك نفسه ، فجأة يقول :

— نعم .. اراها لاتنفع .

واستغرب الجماعة .

كان الحاج سالم مقدم الاقتراح يشحذ عينيه وينظر الى المبروك في اندهاش . كيف لا تنفع ؟ وعندما سمع المبروك يقول بأنها لا تنفع لان الجراد عنـــدما يطردونه من جهة ، فانه سوف يذهب الى بلدان اخرى فيها ناس ، وفيها زرع ، وفيها قلوب تنبض . .

عندما قال المبروك ذلك ، وجد الحاج نفسه بحـــاجة الى أن يدافع عن اقتراحه . الا ان المزارع الطويل تولى عنه المهمة عندما قال بصوت مشحون بالتعجب والاستغراب . .

— ماهذا الكلام يامبروك ؟ هل تريد عندما يأتي الجراد الى قريتنا ان نوقع معه عقداً بالا يزعج القرى المجاورة ، التي بهـــا ناس وزرع وقلوب تنبض ؟؟

وانتهز الحاج سالم الفرصة ليواصل الدفاع عن اقتراحه :

— الذي يهمنا جميعاً هو ان تكون أرضنا وزرعنا بمنجى من خطر الجراد ، وليس ثمة رأي احسن مما قلت لكم ؟

وارتفعت اصوات اخرى .

ــ هي فكرة الحاج سالم ، لن نجد فكرة أحسن منهـا . الا ان المبروك استمر مواصلا كلامه ، وكأن احداً لم يقاطعه :

ــ فما رأيكم الان ، ايها الاخوان ، في فكرة اخرى ؟

كان الليل من حولهم بدأ يسدل سدوله .. والوجوه أصبح لونها مبها بلفه السواد ..

ونسمات مابعد الغروب تهب عليهم .. تلفح وجوههم .. وتحرك بعضهم بسوي نقاب عباته ..

واشرأبوا بأعناقهم ، في حين ابتدأ المبروك يسرد فكرته .. كان واضحاً انه الان يستشعر اقتناعا عميقا بالفكرة التي سيقولها . وكانت سيماه تتخذ سمة القائد الذي يشرح لجنوده عملية حربية دقيقة ..

ــ فكرتي هي هذه .. ان نأكل نحن الجراد بدلا من أن يأكلنا هو .

ومن خلال الظلام تبادل الجماعة نظرات حائرة ماذا يقول المبروك ؟ وافصح احدهم عما يدور في ذهنه .

ــ .. لم نفهم ..؟.. كيف نأكله ؟!

ربما كان الامر مفهوماً ، اذا ماكان يتعلق بعدة جرادات طائشة يمسكها الاطفال . فيقلونها ويأكلونها . ولكن مع ارجال لاحصر لها فهذا هو العجب .

كان يبدو أنهم على استعداد لهضم جبل بأشجاره وأحراشه وحشراته على أن يهضموا هذا الكلام . وبما أن ماقاله المبروك شيء عجيب .. فلم يكن مستغرباً أن يرين هذا السكون على الجماعة لينصتوا بوضوح الى مايريد أن يقوله سي المبروك .

وعندما مضى المبروك يوضح فكرته لم يستطع الجماعة أن يغالبوا رغبتهم في مصمصة شفاههم وتبادل النظرات الحائرة .. التي غالباً ما كانت ترافقها شفاه مقلوبة .

وكان مجمل فكرة المبروك التي مضى يوضحها في خطاب طويل .. أنهم في هذه الليلة وفي الساعات الاولى من السحر .. تماماً تماماً .. يجب أن يكونوا مجتمعين في الطرف الجنوبي من القرية . على ألا ينسى كل واحد منهم ان يأخذ معه شوالاً فارغاً فأمامهم معركة لم تعرفها عهود المعارك من قبل معركة السلاح ؛ فهي شوالات فارغة ، ومن ثم يتجهون الى حيث ينام الجراد – وهو عادة لا يستيقظ إلا عندما تلهبه أشعة الشمس – وهناك يعبئون الجراد النائم داخل اكياسهم الفارغة حيث يعودون الى بيوتهم ليسلقوه في مراجل سوداء وليتنقل الجراد من أجواف الجيش الى أجوافهم هم وتكون أروع عملية إبادة عرفها تاريخ الجراد .

وما كاد ينتهي المبروك من ايضاح فكرته حتى كانت التعليقات الساخرة ترتفع من كل مكان في هذا الجمع الصغير .

– **هذا جيش . جيش من الجراد . ليس جرادة ولا جرادتين .**

– جيش بالملكة التي تحكم عرشه .

وهمهم الجمع في سخرية . وانتهز الفقي مصباح هذه الفرصة فرجع يذكر الجماعة برأيه الأول قائلا بانهم يجب ان يسرعوا من الآن بالذهــاب الى ضريح سيدي (أبو قنديل) شيخ الأولياء والصالحين .

وفي هذه اللحظة كان الظلام يستحكم اكثر فاكثر . وكثير من الاطفال أتوا يستدعون آباءهم الى العشاء . و (قالت لك امي العشاء برد) .

وكان المبروك يشعر بأن الجماعة لم يتمعنوا جيداً في الرأي الذي قاله .. وكاد يهم بتوضيحه اكثر ..

وفجأة قال الشيخ مسعود :

– **اسمعوا يا اخوان ..**

واستمر بعد ان هدأت الضجة :

- حسب ظني يارجال ، كلام المبروك لايخلو من الصواب .

- لكن هذا جيش من الجراد الذي اذا انتشر في الجو حجب السماء عن الانظار . ويريد المبروك من هؤلاء المجتمعين الذين لايزيدون عن الخمسين نفراً جمع الجراد والقضاء عليه . هذا هو المستحيل بعينه .

وأطرق الشيخ مسعود برأسه قبل ان يقول :

- ولماذا هؤلاء الخمسون نفراً فقط ؟ لماذا لاتخرج القرية كلها بكبارها وصغارها ، العجائز والكهول والأطفال والنساء والشباب . ويشارك الجميع في عملية جمع الجراد . ودان سكوت ..

فقد فتح الشيخ مسعود نافذة جديدة على اقتراح المبروك بقوله هذا .. كان واضحاً انهم الان يراجعون انفسهم حول اقتراح المبروك .

وكان أول الرافعين رأيه بالتأييد الحاج سالم :

- وأنا كذلك أقول .. إن رأي المبروك ليس به عيب .

وتوالت التأييدات .

- والله صحيح ، لماذا لانجوب هذه بالليل ، واذا لم تنفع لجأنا بالنهار الى فكرة الحاج سالم .

- ونضرب عصفورين بحجر . نقضي على الجراد من جهة ، ومن جهة أخرى نحصل على أكل أطفالنا ليومين أو ثلاثة .

شخص واحد فقط ، هو الفقي مصباح رفض بشدة هذا الاقتراح المجنون .. حيث قال :

- انتم مجانين ، لاشك أنكم جميعاً مجانين .

ثم دق الارض بعصاه ، وغادر الجماعة غاضباً . كان واضحاً أنه يتعجب

لهؤلاء القوم الذين يتركون رأيه الرزين .. ويتبعون اقتراحاً مجنوناً يقوله طفل صغير كالمبروك .

وانفض الجميع ..

وفي أول ساعات السحر .. تماماً .. عندما كان ديك في مكان ما يؤذن .. وكلب ينبح النجوم . وعواء ذئب حمله الريح . من مكان بعيد بعيد .. في هذا الوقت تماماً كان الطرف الجنوبي من القرية يشهد لقاءاً من نوع لم يعرفه تاريخ الاجتماعات في هذه القرية من قبل .

كان عددهم كثيراً .. كثيراً جداً .. وقد عبر عاشور فعلاً، عما يدور في أذهان الجميع عندما قال إنه لم يكن يتصور أن القرية تضم هذا العدد الكثير من الناس .

وكانت الصفة الوحيدة التي تجمع بينهم في هذا الشوال الفارغ ؛ الملقى على كتف كل واحد منهم أما فيما عدا ذلك فهم خليط عجيب من الرجال والنساء والعجائز الذين تحني السنون هاماتهم ، والاطفال الذين لم يمنعهم الليل ولا البرد من من أن يتقافزوا هنا وهناك .

وكانت واحدة من النساء قد أحضرت معها طفلها الرضيع ، وعامر أتى بركب حماره . أما عبد النبي فقد أحضر معه عربة اليد الصغيرة ليضع بها شوالين أو ثلاثة من الجراد . وكان عدد من الكلاب يهرول في اعقاب ركبهم .. يشكل ذيلاً طويلاً للركب .

وسار ركبهم الكبير يختلط فيه نباح الكلاب مع نهيق الحمار ، وصليل عربة اليد الصغيرة ، مع الصوت الصادر عن أقدامهم التي تضرب بعنف الارض الواسعة .

ورغم ان الربيع يوشك على الفوات .. الا أن النسمات في هذه الساعة من السحر .. باردة باردة ، بحيث تجعل وجوههم تلتهب وآذانهم وأنوفهم تحتقن

وتحمر . إنهم يشعرون بهذه النسمات محملة بعبير أشجارهم ومزروعاتهم بل كان واضحاً أن كل فرد يضمه هذا الجمع يميز الان في هذا العبير .. رائحة شجيرات البرتقال في بستانه ، أو سنابل الحنطة في حقله .. أو البلح في شجيرات نخله ولم يكن ثمة قمر يضيء المكان عندما كانوا يسيرون . الا أن النجوم التي تلمع كأنها عيون السماء .. ما يزال ضوؤها يبدد شيئاً من الظلمة .

أما عندما وصلوا المكان الذي ينام فيه الجراد فان أعمدة الفجر النورانية التي يتفجر بها الافق كانت كافية لتنير امامهم المكان بحيث يستطيعون جمع الجراد بسهولة .

وكان هذا الافق يبدو أحمر ملتهباً .. كان يبـــدأ حمرته من رؤوس القرون الضاربة الى الزرقة ثم يتصاعد بها حتى تتلاشى في السماء السوداء ، وكان التهاب هذا الافق فيه حيوية ونبض وحركة .. حتى ليخيل اليك ان ناراً الهية هائلة تستعر خلف هذه القرون ، تجعل الافق يلتهب بهذه الصورة .

وكان الجراد قد اختار لنومه هضبة عريضة انتشر فوقها . كان يبدو تحت اضواء الفجر وكأنه حقل كبير لا ينتهي من سنابل الحنطة المصفرة في لون الذهب والتي حان أوان حصادها .

وكانت لحظة البدء في العملية ..

وابتدأ القوم يستعدون . خلع الرجال عباءاتهم ورموها في أكوام متفرقة . وربطوا الأحزمة حول بطونهم . وشمروا عن سواعدهم السمراء التي ينزرع فوقها الشعر . وأصحاب السراويل الفضفاضة شمروا عن سيقانهم أيضاً ، واختارت أم الرضيع مكاناً أميناً تحت شجرة صغيرة وضعت فيها ابنها بعد أن قبلته ولفته في اسماله الكثيرة بعناية .

ووضع عامر القيد في قدمي حماره الاماميتين وتركه يأكل العشب .
وكان بعضهم قد أحضر معه مطرقة .. ونساء أخريات كن يحملن معهن أكياساً صغيرة بها أرغفة من الخبز اتين بها احتياطــاً لصرخات الاطفال التي ربما تعاو بمطالبة بالطعام . كلها وضعوها في اماكن متفرقة . وكان كل ما في المكان يوحي بأن عملا عظيما خارقاً سيشهده هذا الفجر .

ولم يحتر القوم من اين تكون البداية .. فقد ابتدأوا من سفح الهضبة .. هكذا بانتظام . على ان يواصلوا الصعود تدريجيا .. وعلى امتداد الهضبة امتــد الحشد الكبير في خط مستقيم ،وكان الاتفاق بان كل واحدعليه ان يمضي في جمعه للجراد عبر خط مستقيم امامه .

وجلس الجميع على ركبهم فوق الارض ..
وامتدت الاصابع صغيرة وكبيرة .. خشنة وناعمة .. تزج بالجراد داخل خيش افواهها مفتوحة .. ابتدأ القوم عملية الابادة للذي كان مقدراً انه سيبيدهم عندما تشرق شمس هذا اليوم .

انهمك الجميع في الجمع بهمة لاتقاوم . غــير آبهين للأشواك ورؤوس الاحجار المدببة التي ربما أدمت أيديهم .. ولا للحشرات والعقارب المنكمشة من البرد التي ربما جمعوها في غمرة اندفاعهم .. كل مايهمهم الآن هو أن هـذا الجراد الذي أمامهم يجب أن يجمعوه في أسرع وقت ممكن .. وقبـل أن تشتد عليهم وطأة الشمس .

وكان الاطفال يجرون عبر منطقة الجراد إلا أنهم سرعان مايخرجون مذعورين على اثر الصيحات التي تركض اليهم زاجرة ناهرة . وأمي سعيدة العجوز لم تسكت عن الصياح بانهم يجب أن يعثروا على ملكة الجراد قبل أي شخص آخر، والغناء يرتفع من اماكن متفرقة في هذا الخط البشري الطويل .

كان بعضهم يغني أغاني الحصاد .. وبعض الشيوخ ارتفعت عقائرهم بالهجاء الذي كانوا يقولونه أيام حربهم للطليان وكان ثمة رابطاً بين الحرب وبين ماهم فيه الآن .

كانت أصواتهم ترتفع ..

احنى نحاربوا والغير .. بينا .. بينا ..

على بلادنا والله لا ولينا ..

هاولاد يا زين .. هاولاد ..

وفي مكان آخر يرتفع غناء جماعة في صوت واحد ..

كانوا يغنون .. يا قمر في العالي .. في العالي ..

سافري وتعالي .. وتعالي

حتى الاطفال الذين يدرسون بمدرسة القرية اكتشفوا أن في هذه اللحظة من الفجر .. في هذا المكان الشاسع .. سيكون الغناء شيئاً جميلاً وحلواً .. فما لبثت أصواتهم الصغيرة أن ارتفعت بغناء آخر نشيد حفظوه في المدرسة .

أما الصغار جداً الذين لايعرفون أناشيد المدرسة ، لأن اعمارهم مازالت لاتسمح بدخولهم اليها .. فقد اكتشفوا أن شيئاً ما يختفي في الوهاد القريبة يردد مع القوم الغناء في صدى جميل .. مما جعلهم يرهفون آذانهم .. ويفتحون أعينهم الصغيرة السوداء في انبهار ..

ثم يصيحون في صوت واحد .

ــ هــو .. هــووووو .. هــووووو

وعندما كان يرد الصدى

ــ هــو .. هــو .. هووو

كانوا ينظرون بعضهم الى بعض في دهشة .. ثم يضحكون ويصفقون في فرحة عارمة . وكأنهم عثروا على اعظم اكتشاف في العالم .

كان الجراد ساكنا هامداً كأنه ميت .

والخط البشري الطويل يتقدم باستمرار . كان أحياناً يبدو منصرماً . واحياناً متعرجاً . وفي احيان اخرى يستقيم حتى أن الجراد يبدو امامه وكأنه بساط كبير عريض يطويه هذا الطابور الطويل .

وكل واحد منهم يود لو يتمكن من توسيع الرقعة المخصصة ليجمع جراداً أكثر . وحتى عندما امتدت يد مزارع عجوز الى الجراد الذي امام عمران ، كادت تحصل مشادة بين الاثنين ، لولا أن المزارع العجوز سحب يده في الوقت المناسب .

وبعض الشيوخ الموجودين كانوا في أزمان بعيدة من ضحايا الجراد . يستبد بهم الان شعور غريب بأن بينهم وبين هذا الجراد ثأراً قديماً .. مما يدفعهم للجمع بغلّ ولهفة وعنفوان . وفي أعماقهم فرحة ، بأنهم الآن يردون الثأر . ينتقمون لنكبات سببها الجراد .

وكانت أصوات كثيرة ترتفع بين الحين والآخر تطالب القوم بمضاعفة النشاط .. وكان اكثرها الحاحاً صوت الشيخ مسعود .

– **اسرعوا يارجال .. انشطوا يارجال .**

كان يقول يارجال .. والفجر يشهد أن نصف هذا الخط البشري الطويل يشغره نساء واطفال .

وكانت الهضاب وهي تردد صوت الشيخ مسعود .. تبدو وكأنها تبعث بتأييدها للعملية التي تجري الآن .

وفي احدى زوايا الخط لعبت النشوة بأنفار سبعــة من بينهم عاشور.. فاتفقوا على أن يجروا فيما بينهم سباقاً حول من منهم يكون الاول الذي يسبق بالوصول الى قمة الهضبة حيث نهاية الشوط .. ويكسب الرهان.

ورغم ان الانفار الستة الذين مع عاشور كانوا يجهدون انفسهم لدرجة ان حبات العرق كانت تنبثق على جباههم رغم برودة الجو .. فان عاشور الذي سبقوه في بداية الامر .. سرعان ما وجدوه يقطع شوطاً كبيرا امامهم ثم اذا به يصل الى نهاية الشوط .. ويكسب الرهان. كان عاشور في الخط الطويل بأكمله.. اول من وصل نقطة النهاية.

وصاح عاشور في أعلى الهضبة .. وهو يرفع كلتا يديه في حماسة :هاي .. هــاي .. هــاي ..

كان واضحا ان شعوره في هذه اللحظة شعور قائد عظيم ينتصر في اعنف معاركه الحربية .. وتوالى من بعده وصول الآخرين.. وأكياسهم مليئة بالجراد.

وقبل أن تطلع الشمس من خلف القرون البعيدة .. كان آخر من تبقى من الجماعة قد اكمل نصيبه.

ووقفوا بجمعهم الكبير فوق الهضبة يشهدون هذه المعجزة التي تمت على ايديهم .. وفي قلب كل واحد منهم فخر بأنه احد الذين تمت على ايديهم المعجزة. لذلك فهو يبتسم في سرور.

كانت الهضبة حمراء .. لم يتبق من ذلك الجراد الذي كان يغطيها سوى عدة جرادات تتناثر هنا وهناك وقد راح بعض الاطفال يتقافزون وراءها.

وكان الحاج سالم ينظر إلى الارض الحمراء. ومازال يردد أنه حتى الآن لايصدق كيف تم الذي تم. وكان النساء يستعجلن الساعة التي سيصلن فيهـا

القرية . حيث يقمن بسلق الجراد في (حماميس) سوداء ويقلن في كل عملية سلق ..

ــ حلالك ، ملالك ، سكينك في نارك ، بسم الله والله اكبر .

ولسوف يسترحن من دوشة اطفالهن بالمطالبة في كل لحظة بالخبز الذي في الغالب ماتكون أرغفته المعدودة قد نفدت . سيكتشف هؤلاء الاطفال ان الجراد طعمه لذيذ . حتى عندما يذهبــون الى المدرسة لن تكون في شنطهم الصغيرة التي تخب متدلية من خيوط على اكتافهم كسرات من الخبز .. بــل ستكون عامرة بحفنات من الجراد المسلوق !

ويرجع أهل القرية الصغيرة . الاكياس مليئة بالجراد على اكتافهم واظهرهم . . والفرحة في قلوبهم وعلى وجوههم .. حتى خطواتهم تبدو فرحانة .. فقد كانوا يمشون و كأنهم يرقصون .

وكان عبد النبي يمسك بعربة اليد الصغيرة المشحونة بثــلاثة اكياس من الجراد . . ويجري بها خلف الاطفال ، ويصيح وهو يقلد السيارة ــ بيب .. بيب .. فيكركر الاطفال . .

حمار عاشور يخب و كأنه هو الآخر فرحـان . . حتى الرضيـع الذي كانت تحمله امه على ذراعها كان بكاؤه يبدو جميلا كالغناء . وعاشور كان يتندر بالجماعة الذين كسب منهم الرهان .

وجميعهم .. كانوا يضمون قلوبهم على الشوق الذي يحمـــلونه لقريتهم الجميلة الوادعة التي تتراءى امامهم . . كأجمة خضراء غارقة في اضواء الصباح .

والشمس تشرق عليهم من بعيد .. تجعل ظلالهم .. طويلة .. طويلة .. كأنهم عمالقة ، واحيانا كانت تتجمع ظلالهم في ظل كبير طويــــل يتقدم الى الامام .. كأنه ظل انسان واحد لم يعرف العالم اكبر منه .. ولا اعظم منه .

شعر

شهريار والمرايا

محمد عمران



... وحوش الرياح نحاسٌ ،

تسيل الأناشيدُ نهراً ،

جرفنا مع الموج ،

هذا مدانا السحيق يرن ،

ألسنا الصدى والمرايا ؟!

عربات الرياحْ
تقلُّ الأمير الى قصره، والأميرهْ
تعود في الأفق ،
هذا وشاح الأميرة كوكب غارْ
يرف على شفتي سيدي شهريارْ
وهذا الصباح جناحْ
على راحتيه ،
وفي عروقي صدره وردتانْ
من الشمس . . .
خيل الأميرْ
تحمحمُ في ساحة القصر ،
هذا الوزيرْ
أعدَّ له الليل :
« ياشهريار
صففنا الموائد من كل لونٍ ،
أتينا بناقر دفٍ ،
براقصة من وراء البحارْ
فرشنا سريرك بالعري ،
ياشهريار . . »
ويعبق بالسحر قصر الأميرْ

يطير على شفتي سندباد
تطير به شهرزاد
كما تشتهي ، ويموت الصباح

* * *

وشهريار
بيت بلا جدار
ليل من العهر ، من الجنون ، والدمار
وشهريار
محارب ، أبوه من فوارس التتار
وأمه من سبي هولاكو ،
وشهريار
قرصنة في عتمة البحار
جموح راعي بقر ،
وشهريار
سيد هذي المدن الخرساء ،
شهريار
في سره زوبعة من غبار

* * *

الليل زوابع نار
عربات الريح الوحشية تسحق خد الفجر ،
غبار

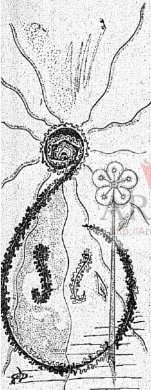
دولاب غبار يذرو الموتَ
يدور على وجه المرآة
ماعادت تبصرُ ،
ماعادت تسمع ،
الشمسُ غبارٌ
الشمسُ دخان وغبارٌ



ليبيا والفجر الأخضر

علي صدقي عبد القادر

— طرابلس — ليبيا



في ليالي الرعب كانت أمتي بالدم تصنـــع
قصة الشعب الذي مزقــه شنق ومدفع
يوم قلنا لن يمر الغزو ، فاغتاظ ، ولعلـــع
وبدا التـــاريخ في موطننا ، يرنو ويسمع
هاتفاً لن يغلب الشعب الذي يرفض يركـــع

* * *

(*) من مجموعة (زغاريد ومطر بالفجر) الفائزة بالجائزة الأولى للشعر في مسابقة اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب في ليبيا عام ١٩٦٥ .

من ليـــالي الرعب تاريخ الدماء
من جراح الشمس تنـــدى كبرياء
نعجن الفخر بأزهـــار الضيـــاء

* * *

عند بدء الخلق كانت « ليبيا » للشمس مظهر
تمنح الالوان للطـــير ، وللزهر تعطـــر
انهـــا أم لنا ، في صدرهـــا حب وعنـبر
حبة من رملها ، أغلى من الدنيـــا ، وأكبر
انهـــا موطن أعراس لأمجـــاد تنـــور

* * *

عند بدء الخـــلق والكون غيوم
« ليبيـــا » كانت بأجفان النجوم
ترفـــع الراي على هـــام التخوم

* * *

يوم هبت عاصفـــات من جنود وحديد
يوم جـــاء الموج بالجرذان والغزو البليد
قام هذا الشعب يحمي الأرض في عزم شديد
يحمل البـــارود والفأس وعـــكاز القعيد
ثلث قرن من دمـــاء ودموع ، أو يزيـد

كل شبر من ترابي موقعه
شهدت طعنة أمي المرضعه
بيد القوصان ، تهوى موجعه

* * *

قد شربنا الدمع ، واقتتنا « بفكوريس » النخيل
وعقلنا الركب السمراء ، فارتاع الدخيل
وجرحنا ـ بالزنود ـ الغيب والليل الطويل
ليطل الفجر ، من عين الفدائي القتيل
لتعود البسمة الخضراء ، للطفل الجميل

* * *

للفراشات ، الخطوط الزاهية
لصبايانا حكايا الساقية
للفتى الشاعر ، شوق الدالية

* * *

ومضى الغازي مع الليل الى غير لقاء
عندها ، أشلاء قتلانا استراحت في هناء
ورجعنا نحو صدر الارض ، نعطيه النماء
نزرع الحبة في الصبح ، ونجني بالمساء
وانطلقنا نصنع التاريخ ، نبني ما نشاء

* * *

ورفعنا وجه «ليبيا» «في علم»
واختصرنا الشعب، في ساحة دم
ثم جسمناه في هـــذا العلم



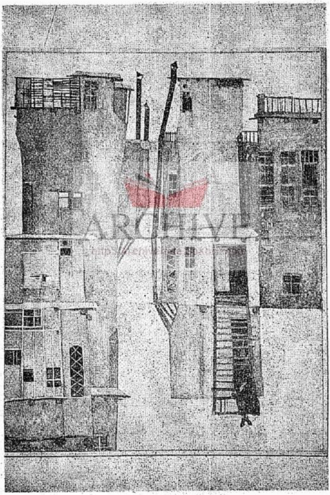
الفنون

الكتاب والموضوعات

- غازي الخالدي — معرض الربيع التاسع

معرض الربيع التاسع

غازي الخالدي



دمشق تسبح في الليل – اسعد عرابي

منذ تسعة اعوام والفنانون يلتقون كل سنة مرتين ، مرة في معرض الربيع بحلب ، ومرة في معرض الخريف بدمشق . أهم ما في هذا اللقاء انه يتيح فرصة هامة لجميع الفنانين للاطلاع على اعمال بعضهم .. ليتلمسوا معاً الملامح الحقيقية للفن العربي السوري الذي بدأ بالفعل يتبلور شيئاً فشيئاً من خلال اعمال عدد كبير من الفنانين المتجين الذين يعملون بجد واصرار .

والمعارض الدورية هذه من ناحيـة اخرى تؤدي دور الغربال ، الذي يتحرك ذات اليمين وذات الشمال من سنة الى سنة .. ومن معرض الى معرض.. حيث يسقط من يسقط ، ويبقى من يستحق البقاء .

ورغم كل هذه النتائج ، وما تقدمه هذه المعارض من مكاسب للحركة الفنية ، فان اكثر ما يهدد هذه المعارض بالفشل .. ويخنق تقدمها بالفعل ، هو هذه العشوائية في التساهل بقبول اعمال الهواة والمبتدئين الذين يرسمون لأول مرة في حياتهم ، ويقدمون لوحات لا تمت الى الفن بصلة .. ولا ترتبط بأي مفاهيم ولا تدل على أية خبرة ..

معرض الدولة هو المعرض الذي يصنف اعمال الفنانين ويقدمها للعالم كجزء هام من تراثنا الحضاري المعاصر .. وليس مجالاً للمجاملة او الشفقة او التشجيع ، فهذه الافكار لم تعد مقبولة أبداً ، خاصة بعد ان ظهرت كلية للفنون الجميلة في سورية ، وصار العمل الفني عملاً جدياً ملتزماً المفاهيم العلمية والفكرية في الفن ، اما أعمال الهواية والتسلية فليس مكانها معرض الربيع أو الخريف .

ولا يجوز بعد اليوم بالفعل قبول أي عمل من أعمال الهواة المبتدئين او الاعمال التي لا تصل الى المستوى الفني المطلوب بصرف النظر عن اسم الفنان الذي يقدمها .

١ – هناك بعض الاسماء بدأت تتبلور اعمال اصحابها بشكل واضح وصار لكل فنان اسلوبه الخاص به ، الاسلوب الجاد ، الذي فيه الاحساس والخبرة .. والاصالة . من هذه الاسماء : نذير نبعة ، احمد دراق السباعي ، اسعد عرابي ، غياث الأخرس .

٢ – فئة اخرى تعيش مرحلة تطور وتبلور وتحرك مستمر ، بحيث يبدو على اعمالها طابع التجربة الجادة للكشف عن معالم جديدة في الفن التشكيلي ، ولتعميق الخبرة والاحساس باللون وبالقيم الاساسية للعمل الفني ، امثال فاتح المدرس ، والياس زيات ، وغسان السباعي .

٣ – فنانون آخرون ما زالوا يكررون افكارهم ، ومواضيعهم ، والوانهم ، بحيث صارت اعمالهم شبيهة الى حد كبير بمراحلهم الاولى التي قدموها منذ افتتاح معرض الربيع الاول .. ولعل مرد ذلك كونهم اقتنعوا بالنتائج التي وصلوا اليها بتجاربهم ولم يعد بامكانهم التحرر من القيود الشكلية التي فرضوها على اعمالهم خوفاً على اسلوبهم الذي عرفوا به .

وان الحلول التشكيلية داخل الموضوع نفسه لم تتغير ابداً ، حتى يمكن تجاوز التواريخ المسجلة على اللوحات والنظر اليها من خلال سنة واحدة ، من هؤلاء : حزقيال طوروس ، وعبد القادر نائب ، وممدوح قشلان ، ونعيم اسماعيل . الا ان « نعيم » قد جرب هذه المرة ان يغير من طبيعة الالوان نفسها ولم يغير شيئاً من جوهر اللون والتكوين او البقع التي يوزعها في الصورة .

٤ – ظهرت محاولات اخرى جديدة ذات اجتهادات خاصة وتجارب فردية الا انها تبشر بولادة اساليب وملامح فنية خاصة ، مثل اعمال فؤاد ابو كلام ، واسعد المدرس ، وخزيمة علواني ، وبدر الدين مولوي ، ومحمد عساني .

٥ — عادت بعض الخـــامات الضائعة الى الظهور بعد ان احتجبت عدة سنوات ، مثل النحاس المطروق (طوروس راست كلان) والنحاس المضغوط (هدى الايوبي ، وزهيرة الرز) والخشب المحفور (جورج بابلانيان) ، وجميع هؤلاء — ما عدا هدى الايوبي ينقصهم الرسم الجيـد والفهم العلمي للعلاقات التشكيلية بين اجزاء الصورة ، كأبعاد التكوين وتوزيع الوحدات فيه .

٦ — النحت متـــأخر جداً عن جميع اوجه النشاط الفني في البلد ، ولعل مرد ذلك عدم اشتراك عدد كبير من المثالين في هذا المعرض ، والاعمال النحتية التي عرضت كانت لهواة ومبتدئين وذات طابع مدرسي تماماً ، الا تمثال وحيد استنبولي « رأس الانسان المعاصر » فهو محاولة غير ناضجة للتعبير عن قوة عصر الآلة والمادة من خلال جمجمة بشرية .

٧ — أن المعرض بمجموعة اعمـــاله يعكس فترة النشاط الفكري والتطور الحضاري الذي يعيشه قطرنا العربي السوري في هذه الأيام وإن كثيراً من المفاهيم الاجتماعية المرتبطة بحياتنا اليومية وجهها الفنانون الى قيم تشكيلية اعطت صورة جمالية عن أبعاد المرحلة التي نعيشها اليوم ، كما أن بعض الفنانين حاول أن ينطلق من الاطار المحلي الى الافق الانساني حيث عولجت بعض الموضوعات التي ترتبط بالانسان المعاصر الذي يعيش تجربة عصر المادة ، مثل لوحات (الانسان المعاصر) لغسان سباعي و(شيء آخر) لغازي الخالدي (جنازة) لليب رسلان .

هذا من ناحية المعرض بشكل عام ، وفيما يلي سنقف لحظات مع بعض الاعمال التي تفيدنا في الدراسة .

احمد دراق السباعي :

حاول احمد في لوحة (مآذن) ان يتحرر من فكرة الوحدات السابحة

في الفراغ ، وانتقل بألوانه البدائية الى مرحلة أكثر جدية واعطى درجات متفاوتة من القيم للون الواحد وهو الرمادي ومشتقاته .

اسعد المدرس :

ظهر في تجربة اسعد الجديدة نوعان من المعالجة للمساحة ، نوع يعتمد على المساحة الهندسية المرسومة باللون ونوع يعتمد على المساحة العفوية التي لاترتبط الا بالظل والنور لتوحي بالكتلة او بالبعد ، وتجربة اسعد هذه لاتزال في اولها وارجو أن لاتؤثر الخطوط الهندسية على حساسية اللون المعروفة في اعماله .

اسعد عرابي :

لقد استطاع اسعد عرابي ان يستفيد من تجربته الاولى في لوحات مشروع (البكالوريوس) ومن تجربته الأخيرة التي سبقت هذا المعرض وبلور التجربتين معاً فأخذ من المرحلة الأولى تبسط المساحة وعلاقتها بالفضاء اللوني الذي يحيط بها من بعض الجوانب وأخذ من المرحلة الثانية شفافية اللون وحساسيته ، اللون الممدد الصريح .

وان مجموعته تدل على فهم كبير وحساسية شديدة للشكل واللون والأرضية الفكرية . واعتقد انه بدأ يتلمس اسلوبه بكثير من الثقة والاصالة .

اسماء فيومي :

لوحتها (تكوين) هي استمرار لأعمالها التجريدية التي قدمتها في معرضها الأول إلا أن الحلول التشكيلية التي طرحتها في هذه اللوحة لم تكن متماسكة في جميع أجزائها ، خاصة منتصف اللوحة حيث ضاعت الألوان التي هي من فصيلة واحدة .

اديب عنال :

اللوحة التي عرضها كان يمكن أن تنجح لو عمد الى تجريـد المعطيات الطبيعية الى مساحات لونية ، ولكنه جرد اللون الابيض وترك الاشجار والأرض والاغصان بشكلها الطبيعي .

ادهم قوطرش :

بعد النجاح الذي احرزه في معرض الخريف ، كنت اتوقع ان التقي باعمال جديدة له في معرض الربيع ، لأن اهم شيء عند ادهم هو هـذه الحساسية اللونية في اعماله ، ولكنه في هذا المعرض قدم اعمالاً قديمة من ايام الكلية وهذه الأعمال لاتمثله اطلاقاً .

الفريد حتمل :

لوحته (أمومة) قفزة واسعة بالنسبة له بعكس لوحتـه (الغازلة) ، واخشى ان تكون لوحـة (امومة) مقتبسة عن بيكاسو في لوحته (امومة) المعروفة .

الياس زيات :

علمت ان لوحات الياس المعروضة هي قديمة سبقت مرحلة التجريد عنده ، ولكن مجرد عرض هذه اللوحات بعد مرحلته التجريدية دليل على موافقته على هذه الخطوة ، فاللوحات بالفعل تمثل مرحلة انتقال بين الرومنسية الواقعية وبين التجريدية . والوان الياس دافئة وذات خلية متحركة من خلال السطح المرئي أي أن المساحة عنده ذات ديناميكية لونية مشعة تختلف باختلاف البقعة المستعملة في اجزاء اللوحة .

بدر الدين مولوي :

لا يمكن ان تقاس جودة اللوحة الفنية بحجمها وانما تقاس بمدى الاصالة ومدى الجودة التقنية فيها ، أما اعماله في هذا المعرض فهي كبيرة إلا انهـــا تفقد عنصر الفهم التشكيلي بحيث يشعر الانسان انه امام الوان بلا أشكال رغم ان لوحته (العودة) فيها تجربة جيدة بالنسبة للتصرف بحركة الالون على سطح اللوحة .

برهان كركوتلي :

لوحته (سليم قطاية) لوحة شخصية عرضت دون ان يكون له علاقة بها بمعنى ان هذه اللوحة لاتمثل اسلوبه تمام التمثيل لأنها تذكارية ومأخوذة عن صورة ، وهو معروف بأصالته وعمقه في تناول الموضوعات الشعبية ، وهـذا ما ظهر في أرضية اللوحة .

جورج جنورة :

يبدو ان جورج بدأ يتطور بالفعل ولكن تطوره مقصور على اللمسة ، بقي ان يفهم كيف يبسط الاشكال ويربطها في وحدة كاملة ، مع أن اللون الذي توصل اليه لون له قيمة .

جورج رحمة :

ان جورج متأثر بزميليه خالد المز ، وزياد الرومي ، واعماله مزيـج من تجربة الاثنين معاً ، وانني انتظر منه ان يتحرر وينطلق ليتعرف على نفسه بنفسه .

خزيمة علواني :

لوحته رقم (٣) من اجمل اعماله فيها بداية جيدة لاسلوب وحشي ، فيه

حرارة اللون (الغوغاني) وعفوية المساحات (الماتيسية) ، خاصة وان هذه اللوحة بعيدة عن اسلوب الديكور الذي عرف عنه في اعماله الاخرى .

خالد المز :

يبدو ان (خالد) قد إعجب بمرحلة معينة من اعماله، وبدأ يكررها في هذا المعرض الا انه فقد عنصرين اساسيين : الأول ـ حل الكتلة ، فقد جاء ضعيفاً الثاني ـ الفكرة نفسها فهي مركبة ولاتخلو من افتعال بمعنى ان الفنان لم يعش بصدق التجربة التي يحاول ان يعبر عنها .

عبد القادر النائب :

بعد غياب عبد القادر كنت أتوقع ان ألتقي بأعمال جديدة له فيها تطور ملموس لاسلوبه ولكنه مايزال محافظاًعلى رموش العين والظل والنور لظرف الشال .

غسان السباعي :

ان أهم مايميز اعمال غسان هو الأرضية الفكرية التي تطل من وراء ألوانه ولكن هذا التفكير جعل الفنان يضحي بالقيم التشكيلية من أجل الفكرة . وقد لجأ الى استعمال اللون الواحـــد وهو البني زيادة في التركيز على أهمية المضمون الفكري الذي يؤكده بإصرار .

فاتح المدرس :

لم يتغير فاتح في هذا المعرض ، بل أضاف الى اعماله المعروفة لوحة جديدة مرسومة بطريقة فن الاطفال اسماها « عشتار تزور سد الفرات » واجمل مافي هذه اللوحة هو البساطة التي عالج بها المساحات ، خاصة وانه استعمل اللون الأخضر



بدوية – عبد القادر نائب

الصريح بمساحة كبيرة لأول مرة في كل اعماله ، وفاتح معروف بطابعه الخاص، وبمواضيعه الثابتة التي لاتتغير ، حتى ان أي تغير في اسلوبه او موضوعاته صار أمراً غير متوقع بل مستهجناً ، وهذا دليل أكيد على انه فنان أصيل ويعبر عن إحساسه بصدق فيقبله الجمهور حتى لو كان الموضوع نفسه يتكرر باستمرار ، لانه في كل لوحة يعطي احساساً جديداً وانفعالاً صادقاً .

فؤاد ابو كلام :

لوحتاه « امرأة » و « في المرسم » تجربة جديدة وخطوة جريئة بالنسبة له ، فقد عرف قبل ان يدرس الفن دراسة اكاديمية بانه تأثري النزعة ، ولكنه اليوم تغير بشكل جذري ، وقدم مجموعة جيدة من الالوان المتكاملة تجمعها احاسيس مرهفة بالفعل ونحن ننتظر منه الشيء الكثير لدى عودته من باريز .

فيصل عجمي :

لوحته اليتيمة (ازهار) فيها احساس خشن بالنسبة للطبيعة الصامتة ، ولكن هذا الأحساس هو الذي امتاز به اسلوب فيصل ، لذلك جاءت لوحته استمراراً لأعماله السابقة .

لبيب رسلان :

لايكفي ابداً أن نحدد في أذهاننا فكرة معينة ، ونحاول أن نبحث لها عن قالب شكلي معين ، بل ان العملية تأتي متكاملة وبشكل مباشر وتلقائي ، وهذا مالم يدرسه لبيب في لوحتيه .. فالفكرة تحدد الشكل .. والشكل يوضح الفكرة ويتعاونان معاً لاظهار الاحساس المطلوب .

لؤي كيالي :

الموضوع الذي طرحه لؤي هــــذه المرة موضوع يعيشه الكادحون في

قطرنا العربي السوري ، وأعماله اخذت شكل الاعلانات المعبرة عن قصة مسلسلة لونت بالأبيض والأسود فقط . التعبير عنده مسرحي ، والحركة مفتعلة بعض الشيء ، والاعمال التي عرضها اليوم في معرض الربيع اكثر تنظيماً من اعمال معرضه (في سبيل القضية) الذي طاف بعض المدن السورية (١) .

محمد عساني :

إن محمد عساني متأثر بتجارب غيره من الزملاء الفنانين ، وهو متردد بين عدة تجارب ، لذلك نراه يحاول عدة محاولات تقنية ، لعل انجح اعماله لوحة (قبب) لأنها بسيطة لم تعتمد على التكوين المعقد المركب .

ممدوح قشلان :

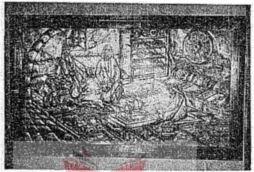
لم يتغير ممدوح منذ عرفته الى اليوم ، يحافظ على المساحات المحددة الملونة المجزأة الى مثلث والى مربع والى مستطيل والى دائرة . . . وحتى موضوعاته نفسها ، لم يخرج بها عن الفلاحين والفلاحات ، حتى انني بدأت أتصور انه لم يعد بامكانه التخلي عن هذا الاسلوب لشدة سيطرته عليه .

نذير نبعة :

ان اعماله التي يعرضها في هذا المعرض تعود الى مرحلة قديمة من أعماله ، سبق ان قدمها في معرضه الاول منذ عامين ، واعتقد ان هذه المرحلة هي اهم مرحلة في حياته الفنية ، حيث ركز على الشكل Forme الانساني وعلى معالجة الكتلة . واهتم اهتماماً بالغاً بالمساحة التي تحيط الموضوع الذي يرسمه ، وكانت اللوحة جزءاً

(١) أشير اليه بين الأخبار الثقافية في العدد / ٦٣ / – أيار ١٩٦٧ – من مجلة (المعرفة) .

لايتجزأ في جميع تفاصيلها ، كما ان هذه المرحلة كانت تحمل مضامين فلسفية واسطورية وحضارية



مضافة عربية — مدى الأيوبي



مليح قطاية — برهان كركوتلي

هدى الايوبي :

بعد غياب طويل عادت الفنانة هدى الايوبي للمساهمة بمعارض الدولة ، خاصة بعد معرضها الاخير الذي اقامته في دمشق[1] وعرضت فيه مجموعة من ٥٠ لوحة نحاسية وخشبية ، وقد نجح المعرض نجاحاً كبيراً لأنها قدمت النحاس والخشب كعملين فنيين بعيدين عن أي صفة استعمالية تطبيقية .

وأعمالها اليوم في معرض الربيع بحلب تتطرق الى النواحي الشعبية من حياة ريفنا العربي السوري ، واللوحتان من النحاس المضغوط ،وقدنفذتا بأسلوب واحد فيه تقنية جيدة واحساس فني مرهف .

يوسف ايوبي :

لوحاته ليست جديدة ، ولكنها تتطرق الى موضوعات طريفة ، والذي يمتاز به يوسف هو هذه القدرة على التصرف باللون الواحد ومشتقاته ، وخاصة في لوحته (الحصاد والصيف) .

غياث الاخرس :

في فن الحفر تبرز اعمال غياث بشكل واضح ، خاصة لوحته (خلف كل نافذة انسان) ، فقد عرف كيف يحرك المساحة الخضراء الملونة ضمن المساحة البيضاء بحيث تشكل مع الالوان المجاورة علاقة جمالية وانسانية رائعة بالفعل ، وان وضع الوحدات في الصورة لم يكن اعتباطياً بل محسوباً بكل معنى الكلمة على عكس لوحاته الاخرى التي جاءت عشوائية بعض الشيء في التأليف بين اجزائها .

(١) أشير اليه بين الاخبار الثقافية في هذا العدد .

النحت (وميرا ستانبولي) :

كنت اتوقع بعد ان علمت ان وحيداً هو خريج النمسا بالنحت ، ان أرى له عملاً هاماً يمثله تمام التمثيل ، ولكني فوجئت بعمل نحتي فيه خاصة معمارية صلبة . حاول من خلال هذا الاحساس ان ينقل لنا فلسفة خاصة تتعلق بالانسان المعاصر ! فجاء التمثال مجرداً من الحس الانساني لأن فيه خشونة وصلابة زيادة عن اللزوم .

تحرص المجلة على التعريف بنتـــاج الفكر العربي الجديد بصورة خاصة ، ونتاج الفكر العالمي بصورة عامة . ويسعدها أن تتقبل شاكرة الكتب الجديدة التي تصدرها دور النشر العربية والأجنبية ، أو التي يبعث بها الينا مؤلفوها ، ليصار الى دراستها وعرضها في حقول المجلة .

. . .

— المقالات التي ترد الى المجلة لا تعاد الى اصحابها ، نشرت أو لم تنشر .

. . .

— ترجو المجلة من الكتاب الذين يبعثون الينا بمقالاتهم وبحوثهم ، أن تكون هذه مكتوبة بخط واضح جداً (والأفضل أن تكون مطبوعة على الآلة الكاتبة) وأن تتضمن اسم كاتبها الحقيقي كاملاً ، وعنوانه واسمه الأدبي الذي يرغب في أن ينشر مع مقاله .

. . .

— ترجو ادارة المجلة من مشتركيها ومن أصدقائها الذين ترسل اليهم المجلة هدية ، أن يعلموها كتابياً عن كل تبديل يطرأ على عنوانهم .

رسالة باريس

• من سعد الله ونّوس

جاك بيرك والفكر العربي

« المثقف العربي يدرك على الفور أن الأشياء مستحيل حزلها . وذلك بلا ريب لأنه تلقى رسالة وهزة التاريخ الحديث مرة واحدة ومن الخارج ، دون أن يتم ذلك على امتداد ثلاثة أو أربعة قرون كما هو الحال عندنا . وكذلك لأنه حساس لانقطاعه عن نفسه ، لتمزقه الأورافرازي (بين أوروبا وأفريقيا وآسيا) ؛ ولأنه يريد أيضاً أن يستعيد وحدته المضيعة . وبالنسبة له أن يرتبط بالعالم الحديث ،معنى ذلك أن يمتلك نفسه ، وان يدخل عناصر مادية واقتصادية واجتماعية وسياسية في هذا الامتلاك الضروري. ولكن المثقف العربي ، وقد أحس هذه العلاقات المتبادلة بشكل عنيف ودموي بعض الأحيان ، يستشعر إزاءها هزة غريزية . إنه يتيقن من فداحتها في الوقت الذي يتعرف عليها . ولربما كان ذلك لأنه يريد أن يراها وأن يرى نفسه معاً »(١)

كانت عبارة جاك بيرك هذه تدوي في رأسي حين دخلت الى مكتبه في «الكوليج دي فرانس » .. كنت أبصر فيها قلق عدد

(١) من مقدمة « جاك بيرك » لكتاب « مختارات من الأدب العربي المعاصر» الرواية والقصة

Anthologie de la litterature arabe contemporaine - le roman et la nouvelle. Editions du Seuil

من الأجيال حكمت بأن تكون تجربة « الاتصال » و « الغربة » وأن تكون معاً القبول والرفض لزوالها الداخلي المنبثق من تبدل مجرى التاريخ . ومنذ دهشة رفاعة رافع الطهطاوي في كتابه « تخليص الابريز في تلخيص باريز » حتى آخر تجاربنا الفكرية والأدبية لم يلتئم بعد « تمزقنا الأورافرازي» على حد تعبير بيرك ، وان كان قد ازداد وعينا به ، ورهفت معاناتنا له . إننا أيضاً هذا البحث القلق العريض يمتد وراء على مساحات من حضارة تامة ساكنة ، وأماماً على آفاق من حضارات تتحرك بقسوة ، وفيا حولنا ثمة هذا الصدام اليومي بين مختلف المتناقضات ماهو مباشر منا وما هو عنا . من هنا يتخذ البحث طابعه الدرامي ، ومن هنا ينبع عناء وتوتر العربي عامة ومثقفه خاصة .

وفي مكتب الأستاذ جاك بيرك ، حيث تكسو الحيطان رفوف الكتب ، وتوفر النافذة ضوءاً شاحباً بخيلاً ، بدأ الحديث فوراً عن هذا الوضع الشائك . كانت نظرة واحدة كافية لتكشف قدر المثقف العربي ملتزماً . وفي هذه الظاهرة ثمة قيم سلبية وايجابية في رأي بيرك وضحها قائلاً :

— تسألني عن رأيي في التزام الكاتب . نعم كل كاتب يجب أن يكون ملتزماً ، بشرط أن يكون هذا الالتزام عميقاً مناسباً لرسالة الأدب والفكر . ومن الملحوظ أن الالتزام يشمل الفكر والأدب العربيين قاطبة ، واني لأرى في ذلك خيراً عظيماً . غير أن في كل ظاهرة من ظواهر الجماعة أو الفرد جدالاً ؛ أو بتعبير أوضح ، خليطاً من الصفات الايجابية والسلبية . لايغلب بعضها على نظيره الا بالاعتماد على البحث العميق والتحليل الدقيق . إذن سعي المجتمعات الحالية لايتجاوب غالباً وانفعال العواطف والحدس ، بل يلزمنا بوسائل متزايدة تأملا وتعمقاً (١) .

● وماهو في رأيك الالتزام المناسب لرسالة الأدب والفكر ؟

— رسالة المفكر أن يصل ويوصل . يصل بنفسه الى حقائق محورية لمجتمعه ، ويوصل مواطنيه الى القيم المناسبة لتلك الحقائق . حتى أنه في نظري يجوز القول إن الأدب اتصال وتوسل بين الحقائق والقيم . لأن الخصائص الأدبية مثل الجمال الصوري والدقة في الأسلوب من أصح الجسور بين ذاتية المجتمع وشعور المواطنين . وبهذا

(١) لقد آثر الاستاذ جاك بيرك ان يجيب بالعربية ، وحرصت على ايراد نص الاجابة كما هو تقريباً ، ولهذا فاننا قد نجد بعض (التعابير الخاصة) التي تترجم في الواقع تعابير فرنسية استعملها غالباً في دراساته القيمة عن المجتمع والثقافة العربية .

المعنى فانني لا أشارك من يريد أن يلتزم الكاتب أو المفكر مباشرة بالتيارات الغالبة ، فليس ذلك الا انهاراً لا التزاماً .

● ولكن ألا يمكن ان يكون هنالك اتفاق فعلي بين الكاتب والتيارات السائدة ؟

— نعم .. بيد أن على المفكر ان يحقق وجود مثل هذا الاتفاق بمراجعة تلك التيارات مع الحقائق المحورية التي أثرت اليها . وبتعبير آخر ، قلماً مايكون مثل هـــذا الاتفاق من المعطيات السهلة ، أو الفرص السانحة .

● مادمنا بصدد الالتزام ، ماهو الفرق بين الالتزام الذي تنـــادي به والالتزام السارتري ؟

— ان سارتر هو احسن مثال للالتزام في جيلنا ، وهذا ممـــا يعترف به الجميع ، اصدقاؤه واعداؤه على حـــد سواء . وأنا نفسي ، وان كنت لا اتفق وإياه في كل مواقفه ، أؤيد اتجاهاته الخلقية والاجتماعيـــة ، واعتبره المفكر الفرنسي النموذجي .

ولكن بما اننا نتحدث عن التزام المثقف العربي ، دعني استطرد فأقول ، إن التزام ســـارتر يناسب احوال الفكر والمجتمع الفرنسيين في فترة من فتراتها مناسبة لايمكن تطبيقها على احوال أفكار ومجتمعات اخرى .

ولهذا فعلى العرب ان يطبقوا على احوالهم لامواقف سارتر بذاتها بل المناهج الفكرية ، والاندفاعة القيمية التي تشاركهم مع تقدمية العالم . بتعبير آخر ، يمكن ان يطبق سارتر كباحث تقدمي ، ومفكر عميق . ولي هنا ملاحظة تتعلق بالترجمات التي تنشر فكر هذا الفيلسوف وغيره من الكتاب الأجانب ، فهي غالباً لاتستجيب لمطالب العـــلم الدقيق ، كما لاتستجيب لحاجة القراء العرب . اني استطيع التأكيد بأن احداً ممن اقتصروا على قراءة سارتر مترجماً لم يفهم فكره بشكل جيد . ولذا ، فاني اتمنى ملافاة لهذا النقص ، ان تنشى هيئات فكرية مثل الجامعات او الكليات او الجامعة العربية ، او قسم خاص من الجامعة العربية بمعالجة هذا الموضوع ، وايجاد حلول جذرية له ..

[التمزق والازدواجية والكبت ، كل ذلك يرافق تقدمهم . ان حنيناً للمثالية يتراكم مع اهدافهم العملية . ومـــا يتحجزونه لايستنفد ، او لايساوي ماهم عليه] (١) .

.. وانتقل الحديث الى الازمة التي يحياها الفكر العربي المعاصر . والحقيقة ، رغم ان حســـاً كثيفاً بالتأزم يخيم على كل اوساطنا الثقافيـــة ، فانها نادرة تلك الدراسات التي حاولت ان تنظر جدياً الى القضية . ان حوارات المقاهي لاتفعـــل وهي تحاول حل المشكلة سوى تجسيدها ، اما مقالات الصحف

---

(١) المصدر السابق

والمجلات فانها تعطي للأزمة ابعاداً جديدة . ولذا ينبغي الا غـــل من طرح السؤال .. **مرة أخرى، ومن جديد لماذا الأزمة ؟**

وأجاب المستشرق جاك بيرك ببساطة :

— جوابي سهل . إن كل أدب جديد بهذا الاسم لابد، كما قلنا سابقا ، من أن يصل ويوصل الحقائق المحورية . فاذا يفعل ان كانت الحقائق ذاتها في أزمة شديدة ؟! عندئذ لا بد أن يكون متأزماً كما هو حال الأدب العربي . وهـــذه الأزمة على حدتها لا تعني أبداً ضآلته وعدم كفاءته . [وابتسم ، ثم استطرد] طبعاً إني اتوقع الآن سؤالك. **ما السبيل الى الخلاص من الأزمة ؟** أنا لست أديبا ، وانا باحثا اجتماعياً ، ولعلني اسرف في حقوق البحث والتحليل . لكن ، على الرغم من ذلك ، أستطيع أن اقول من خلال دراساتي في الأدب العربي قديمه وحديثه أن تطوره مرهون بتخلصه من بعض تناقضاته . التناقض الاول يكمن بين اسلوب التأليف الحالي المتعصر، وجلّه مستورد من الخارج ، وبين المضمون والإلهام اللذين لا يصدران الا عن ألباب المجتمع او من روحه الوطنية. من هنا ينبع تناقض ثاني بين التجدد والأصالة يشمل الآن كل جوانب الحياة عند العرب وسواهم. فهل نتجدد بشرط أن نخرج من انفسنا ، أم ننزوي في ذاتيتنا ونتجنب العالم . **ماهي وسيلة الخلاص؟** هذا مجال بحوثي الآن، وهي تتطلب استعمال اساليب علمية عـديدة لا أظن أنها تنجح الا بتعاون مع المفكرين والكتاب العرب .

● أنا أعلم أني لا أستطيع السؤال عن نتيجة دراسة لم تنته بعد ، ولكن أتمنى لو توضّح لنا كيف ترى الوضع بشكل عام ؟

— الاتجاهات التي يتجه اليها الباحث هي التالية : انسان العصر لن يكون عاطفياً الا استناداً الى ذاتيته ، ولن يكون ذاتياً الا اشارة الى عالميته. وما من تناقض بين العالمية والذاتية ان نظرنا اليها نظرة عميقـــة . ان مـا يستخلص من الحضارة الغربية لا يجب أن يقتصر على أدوات مادية ووصفات ، بل أن يمتد الى القيم الخلقية والفكرية لهذه الحضارة. بيد أنك حين تصل الى تلك القيم تتحقق من أنها ليست غربية بل انسانية . وعندئذ تتلاءم العروبة والعالمية في اكتساب تلك القيم. ومثل آخر .. لو تعمقت في بحثي وتحليـــلي للتراث العربي روحياً كان او جمالياً نتحقق من أن أركان هـذا التراث مشترك للجميع . فليس الإلهام الى عالمي ، وليست الاغـــاني الشعرية خاصة فترة معينة او جيل لمعين من أجيال ومن فترات الانسان ، بل انها تنبع من نفس الوادي الذي انبثقت منه سائر التمدنات .

وأنا أصر على أصـــالة الثقافة . . على خاصيتها الذاتية . واستنكر الرأي القائل بأن التمدن الحالي ، ويقصدون به التمـــدن الصناعي ، ينفي التمدنات الاخرى . فشخصية الحضارات المختلفة لاتتكون باختلاف العناصر ،

إنما بنمط تنسيقها في وحدات مشخصة . وأقول إن كل شخصية ثقافية تستطيع أن تبقى هي بشرط الا تبقى على ماهي . نعم تستطيع ان ترتفع بعبقريتها ونمطها الخاص الى درجات التطبيق التاريخي ؛ فتختلف لاجوهراً بل طوراً . وتستطيع ان تستكمل نفسها بوصولها الى مستوى التمدن الصناعي الحالي ، ولكن دون ان تتنازل عن ذاتيتها .

ثم أعود مرة أخرى الى سؤالك . **كيف يبدو الوضع بشكل عام . ؟** لقد عرفنا الأدب العربي بأنه استقصاء وتحر عن محاور المجتمع والروح العربي العالمي ، فلا تتعجب إذن ان اختلفت الحركات والاطوار . وإني لأرى في ذلك دلالة تفاؤل ، وخاصة عندما ألاحظ ان فهم المشاكل يتزايد في تعميقها . والواقع ماهو التفاؤل التاريخي ؟ انه ليس الايمان بالسعادة ، بل والإيمان بالمشاكل ايضاً ؛ فترى إن كانت تلك المشاكل متصاعدة أم لا ؟ وتعقدها اكثر فأكثر هو درجات في التقدم وفي النماء . ومن وجهة النظر هذه لاشك أن الأمة العربية تنمو وتتطور بشكل يبعث على التفاؤل . إن نظرة مقارنة بين اشكالات الانسان العربي منذ عشرين سنة تقريباً واشكالاته الحاضرة تؤكد الى أي حد نمت المشكلة وتعقدت ، وبالتالي الى أي حد بلغ تقدمه التاريخي .

عندما فرغ الاستاذ بيرك من اجابته الضافية هذه ، كنت أفكر في فقرة من فقرات دراسته عن الادب العربي المعاصر يمكن ان تغني ايضاً تفصيلات الصورة التي يرسمها لوضعنا الثقافي . فبعد أن يستعرض في دراسته هذه مختلف القضايا التي تقاسمت الكتاب والمثقفين بعد النهضة : . قضية القديم والحديث . . قضية تطوير اللغة .. قضية الأدب ومهمته .. الخ ، يستطرد فيقول :

[.. كل هذه المناقشات وسواها تغذي في عالم الأدب العربي عداء حاداً ويمكن أن نذكر أسماء عديدة ونصوصاً وفيرة وراء كل من هذه الاتجاهات . وفي هذه الحوارات ليس هنالك حقاً ماهو جديد أو خاص . ولكن إذا بينت أن هذه الخلافات تزداد خطورة بالتناقضات ، الخاصة بهذه الشعوب ، بين قيم اللغة ومقتضيات الحياة الراهنة التي يسودها الميل إلى الأجنبي والنفور منه معاً ، أصل إذن الى واحدة من الخصائص الاكثر حيوية لهذه الحياة الأدبية . صحيح أن الفنانين والنقاد لم يسيطروا بصورة عامة على القضايا التاريخية والمتجاوزة للتاريخ ، التي يطرحها سلوكهم الذاتي . فهم ، مدفوعين الى اغناء تراثهم التقليدي بالاشياء والافكار ، إنما جمدوا تراثهم بتعظيمه ، وجمدوا « الحديث Modernisme » بجعله شرعياً . لقد وسعوا الهوة بين الغرب والشرق ، أريد أن أقول بين جانبين من وجودهم بقضايا متضادة ، قد يهم لايتناولها ، والمستقبل وحده هو الذي يمكن أن يقول فيها الفصل العادل .

ان حوار الامبريالية والاستقلال الذي طبع حياتهم ، ساهم في توعيتهم. ولكن فيما يبدو أخذوا الى حد بعيد بلعبة العصر . ومهمتهم الكبرى هي أن يعملوا على النفاذ بشعبهم الى التاريخ العالمي . ان الاجابة على التحدي وتنشيط التبادل والتوعية وتنمية وسائل الاتصال ذلك وحده الذي يجعل الاضطلاع بمثل هذه المهمة ممكناً . كما أن خطة كهذه هي وحدها التي تطور اللغة .] .

هنا أظن أنه حان الوقت لطرح أم الاسئلة التي تتناول مشكلة التعبير عندنا . **ترى هل نستطيع أن نصل الى البيئة العربية عن طريق أدبها؟** ومرة قال الاستاذ بيرك وهو يتحدث عن التجربة القصصية في القطر المصري .. [قصّاصهم ، سواء كان عبد الرحمن الشرقاوي أو رشدي صالح او يوسف ادريس او محمد صدقي وكثير سواهم ، قد لا يكون فناناً كبيراً لكنه انسان . انه يجاور مواطنيه والمذاق الحافز للشجاعة ينبجس من هذا العبء الموبوء بالغبار والحشيش . ان شيئاً ما سيولد من هذه الحقيقة] فارأيه الآن . . وأجاب الاستاذ بيرك قائلا :

— أظن انك تجمع تحت كلمة « ادب » كل الظواهر الادبية والفكرية معـاً . فللأدب العربي قيمة كبيرة كوثيقة . وتعلم الاستفادة التي استفدتها منه في بحوثي ، معتبراً أنه من أصح المصادر . غير اننا لانستطيع ان نستغني عن مصادر أخرى منها المشاهدة الحية والمشاركة ايضاً . ومعنى هـذا أن الادب العربي لم يصـل بعد الى ذروة قواه التعبيرية عن امته ، ولن يصل اليها الا بعد خلاصه من تناقضات اشرنا اليها سابقاً . هل قرأت مثلاً رواية كتبت بالفرنسية او الانكليزية عن مصر .. اذكر لك مثلاً رواية بثلاثة أجزاء لفرانسوا بونجان عن حركة الشيخ محمد عبده . ولو قرأتها فلاشك أنك ستجدها ذات قوة تعبيرية اكثر من أي مؤلف عربي عن الموضوع ، ومرد ذلك هو الصعوبة التعبيرية التي سبق الكلام عنها . ومثل آخر فقد صدرت عن المجتمع الاسكندراني قصة انكليزية شهيرة « رباعية داريل » لا أقول انها صادقة ، وانما من مستوى أدبي أرفع مما كتب حتى الآن بالعربية عن تلك المدينة . ولا يرجع ذلك ايضـا الا الى عدم استكمال الاسلوب الروائي في يد الكاتب العربي . بيد ان التقدم امامه ، وانا من المتفائلين بمستقبله . اكثر من ذلك هنالك نواح اخرى من هـذا الأدب اكثر تأصلاً وتجدداً معاً لعلها لاتنقص عن المستوى العـالمي . طبعاً اني اعني الشعر . ومع انني كأجنبي متحير في الحكم على الشعر ، فاني احس في بعض الشـعراء الحاليين قيماً أدبية رفيعة جمعت بين اصالة اللغة والجدارة بتبادل الجمال العالمي .

وحاصل الكلام ، لو سمحت هذه الجملة ، صادرة من صديق يلزم نفسه بالصدق ، ان العرب حتى الآن ، تقصّر كتابتهم عما يفعلونه ويقصر مايفعلونه عما هم عليه .

مسرحية عربية على مسرح فرنسي

ما يثير في الواقع هو التجربة في حد ذاتها. فلربما كانت تلك هي المرة الأولى التي يرتفع فيها ستار مسرح فرنسي عن مسرحية عربية شخوصاً ولغة. وهي دون شك المرة الاولى التي تقدم فيها لجمهور خليط من الفرنسيين والعرب نماذج من الشعر العربي تحيط بكل مراحله، وان كانت لا تستوعب كل أبعاده.

كان ذلك مساء الخامس من ايار حين انفرج ستار مسرح أحد معاهد باريس عن مسرحية «جثة على الرصيف» لسعد الله ونوس (١). جو عار يتلاشى فيه ضوء منا كل الخافت؛ وينفرد في مقدمته اطـــار أسود اتكأ عليه المتسول وصـــديقه الميت ... ثم تستطرد الأحداث بطيئة واخزة. كانت موجة الزمهرير مستمرة ايضاً. وفي الليـــل حيث يحتضنها الظلام ووحدة مثلوجة، مات أحدهما؛ وبقي الآخر على هـــذه الضفة الشفافة التي تفصل الحياة عن الموت. لقد انتهى جسدياً وكذلك نفسياً؛ لكن بقيت لديه هذه القبسة الصافية، الحادة الذكاء التي تفتحها في العادة التجارب العنيفة ومذاقات القنوط النهائي. انه الآن وقد جمده البرد، ورأى صديقه ينفق كالحيوانات يدرك بحس ساخر لا مبال كيف أن العـــالم منظم ليكون ضده. ولهذا فانه لا يدهش اذ يصرخ الشرطي حين يراهما على الرصيف؛ ولا يحتج حين يأمرهما بالرحيل؛ ولا ينفعل اذ يراقب انزعاجه حين يعلم بموت الآخر. كل شيء منظم سلفاً؛ وربما كان مرتبطاً بما هو أعلى. الا أن الجثة على الرصيف فضيحة. فما العمل؟ ويأتي السيد يرافقه كلبه. الشرطي يتصاغر؛ واللعبة تأخذ كامل أبعادها. فعلى نباح الكلب الشبيه بايقـــاع بهيمي حاد تتم مساومة مدهشة. ان السيد يريد شراء الجثة، والقانون لا يمنعه من ذلك.

– (أليس كذلك ياشرطي؟

الشرطي: نعـم يا سيدي. ان القانون لا يمنعك من شرائها.)

ويرضخ المتسول باسماً. بيـــد أن للسيد بعض الشروط؛ فلا بد اولاً من التـــأكد من مسألة موته، ولا بد من التيقن من أنه لم ينتن

(١) من منشورات وزارة الثقافة – دمشق ١٩٦٦

بعد . ولكي يتم ذلك ينبغي شق الجثة . إذن فليستل الشرطي مديته ، وليبدأ .

الشرطي : مديتي أنا ؟

السيد : أجـل مديتك ، ولا أظن أنهم زودوك بها من أجل لا شيء)

عملية لها هوية حضارتنا ، تنمو وتضطرد حتى تنتهي الى هذه الخاتمة .

(المتسول : ولكن أفكر أيهـا السيد . لعلك تشتريني

السيد : أشتريك؟ لم أجن بعد حتى اشتري أحياء)(١)

...هذه المسرحية القصيرة كانت قد قدمت منـذ عامين في التلفزيون العربي السوري . ويومذاك آثر مخرجها « غسان جبري » أن يعطيها اطاراً واقعياً . أمـا المخرج المغربي عيوش نور الدين ، فقد تناولها على مسرح الأليانس في باريس بطريقة رمزية تعتمـد التجريد أساساً للديكور والحركة والجو كله بصورة عامة . ان كل شخصية هي بالذات رمز مفهوم أعم . الشرطي يندغم نهائياً في القانون ، والسيد في بنية اجتماعيـة معينة ، والكلب هو الآخر يتحول إنساناً — قام بدور المخرج نفسه — ويأخذ أبعاد هذه البنية . ثم ان المسرح بقعة مغلقة تضم الجميع ، فما من ممثل يدخل من الخارج . منذ بداية اللعبة كل منهم يأخذ ركنه ، وينتظر دوره كي ينهض من بقعته ويقترب من المقدمة . ان الشخصية تصبح جزءاً من الديكور ومن اللعبة في نفس الوقت ، ويخرج العـالم من تسلسله وتداخله ، ليصبح مكاناً مكشوفاً .. عارياً .

كانت رؤية المخرج أوسع من إمكانية ممثليه ، لاسيما من مثل منهم دور الشرطي ودور السيد ، ولهذا لم تتضح بشكل جيد ، وبقيت بعض ثغرات النقص التي كان يمكن تلافيها بقليل من الجهد .

* * *

بعد المسرحية ، بدأت الفقرة الثانية ، وهي محاولة أشق وأوسع ، تبتغي تقديم نماذج من الشعر العربي في مختلف عصوره منذ جاهليته وحتى الآن .

وفي محاولة كهذه ثمـة صعوبتان لابد من تخطيها :

الأولى هي اختيار نماذج معبرة فعلاً عن غنى الشعر العربي واتساع مضامينه أصلاً وترجمة .

والثانية هي ايجاد أسلوب ملائم لتقديم هذه النماذج الى جمهور ربمـا كان يكتشف تجربة الشعر العربي لأول مرة .

وقـد استطاعت الفرقة مستفيدة من مشاركة الشاعر الشاب فاروق مردم أن تتخير نماذج يمكن فعلاً أن يقال عنها عيون

(١) هذا هو التلخيص الفرنسي الذي وزع على المتفرجين حين دخولهم الى الصالة .

الشعر العربي . كانت مقتطفات من معلقة طرفة بن العبد هي البداية . ثم تتابعت قصائد للخنساء ، وبشار بن برد ، وأبي تمام ، وأبي نواس ، والمتنبي ، وأبي العلاء المعري ، والنفري وأبي القاسم الشابي ، وعمر أبي ريشة ، والسياب وأدونيس . كان بينها أشهر ماقاله هؤلاء بالعربية ومترجماً الى الفرنسية . ولربما كان من المفروض أن تقدم نماذج أخرى لولا أن بعض الصعوبات الفنية قد أدت في اللحظة الأخيرة الى اختصار عدد الشعراء المختارين .

وأمام لوحتين بيضاويتين ، يتلألأ على بياضها نور متغير وقف احد الممثلين يقدم للشعر العربي :

(اذا كانت هنـــالك قوة تمارس سلطتها المطلقة بصورة مستمرة ، وبسطوة كاملة ، على العرب بمختلف اصقاعهم وشروطهم .. المثقف منهم والبسيط ، المحارب والمسالم ، المتشكك والمؤمن ، فانهـــا دون شك قوة الشعر)(١)

وكانت الفترة الأولى ماقبـــل الاسلام . وتتابع ممثل وممثلة . الأول قرأ **طرفة بن العبد** قراءة تقليدية قتلت القصيدة وأبدتها مضجرة والثانية هي كايوت بيسنت - واحدة من ممثلات (الاجداد يزدادون ضراوة) لكاتب ياسين التي قدمت منذ شهور على المسرح القومي الشعبي T. N. P — أنشدت **الخنساء** بالفرنسية ، وقد استطاعت فعلا ان تجعل الجمهور يعيش فجيعة الشاعرة العربية بأخيها صخر . كانت الكلمات تحيا . تنبث فيها الدماء ، وتتفجر في جو مسرحي أخاذ . ومع صوتها كنت اكتشف الخنساء . كنت احيا ربما لاول مرة مأساتها . هنا سأقفز فوق كثير من الاسماء لأصل الى الممثل « بول بيتو » الذي ألقى قصيدة **أبي القاسم الشابي** (ارادة الحياة) وبالفرنسية أيضاً . فمع هذا الصوت ، مرة اخرى اغتنت كلمات الشابي بالحياة ، بانفعال البشر الطامحين الى تبديل اوضاعهم وتغيير خريطة أزمانهم . وغدت العبارة اكثر من كلمات ورموز ، اصبحت حرارة الانسان نفسه وهو يتجاوز لحظة الحاضر الى المستقبل ، وهزيمة الشتاء أمام فرح الربيع .

ومما لاريب فيه ان قراءة « الشعر » جزء من المسرح . اكثر من ذلك ، كيف يمكن أن يفصل التعبير الشعري عن التعبير المسرحي ذاته ؟ ولئن كانت تلك خاصة الشعر عامة ، فانها بالشعر العربي ألصق ، حيث رنة الكلمة اطلالة على المعنى ، والشكل الاذاعي مفتاح للموسيقا .

وانه لمن المؤسف جداً ان تكون القصائد العربية المترجمة الى الفرنسية ، والتي تولاها ممثلون فرنسيون هي بالذات الـــتي اغتنت بالحياة ، ودبت في كلماتها انفاس « البشري ». أستطيع ان اذكر فاروق مردم بصفـــاء القائه ، وكذلك توفيق عبد الهادي بحيوية

(١) العبارة مأخوذة من مقدمة رينيه خوّام لمختاراته من الشعر العربي باللغة الفرنسية .

حركاته ، الا ان القسم العربي يظل جامداً لم يستفد ممثلوه من امكانيات الصوت ، ولم يستطيعوا فعلاً ان يتمثلوا مسرحياً معاني القصيدة . ان من الصعب على امرىء سمع بيسنت وهي تقرأ الخنساء وبيتو وهو يقرأ الشابي ان يجد في قراءات الآخرين ماهو مثير للاهتمام .

ولهذا ، يمكن القول ان القسم الشعري كان ضعيفاً في مجمله . ورغم محاولة مخرجه (عمر حميم اميرلاي) ان يحيطه بجو عربي ، وان يقدم للجمهور بعض روحه وخصائصه ؛ فانه لم ينجح . كان الديكور مجرداً اكثر من اللازم ، وكان الممثلون — اقصد معظمهم — على مستوى اقل بكثير مما تقتضيه تجربة طامحة كهذه .

في المسرحية ثغرات اذن ، وكذلك في القسم الشعري . لكن مع هذا تبقى اهمية التجربة في معناها الرائد . لنتذكر ثانية انها المرة الاولى التي يرتفع فيها ستار مسرح فرنسي عن مسرحية عربية ، وعن نماذج من الشعر العربي . ولئن كانت التجربة الاولى مثغورة ؛ فان الحماسة التي توقد هؤلاء الشباب كما دفعتهم الى هذه المبادرة ، ستجنبهم في تجارب قادمة كثيراً من اخطاء « المرة الاولى » .

واني لأتساءل، لماذا لايساعد هؤلاء الشباب رسمياً ، لاسيا وان مايقومون به هو في جوهره خدمة القضية العربية بمختلف جوانبها ؟.



ميخائيل نعيمة في مدينة الحب

جروان السابق

هـل يستوفي النقد حقه اذا اعتمدنا أعترافات الكاتب ، وما يتخلل هذه الاعترافات من حواش تلقي أضواء على الحقيقة ؟ واذا جاز للكاتب أن يتحدث عن نفسه ، فهل يفصح عن سائر خطاياه ، ومـا أعطته من الحنظل المر ؟ ثم كيف تكون الاعترافات صحيحة سليمة اذا لم تكتب يوم وقعت احداثها ، وإنما بعد عمر من وقوعها ؟

وميخائيل نعيمة كان جريئاً لما كتب « سبعون » (١) سيرة حياته بعد ان تسلق السبعين من العمر . وفي العقد السابع ، محطة الكهولة ، يفقد المرء لغـة الشباب ، المفعمة بالعاطفة ويتنازل عن كثير من آماله ، مثلما يتحرر من اهمية نسيانه لبعض الاحداث التي ربما تكون « هي الاهم » في توجيه مركب حياته .

ولما سألت ناسك الشخروب ، قبل اثني عشر عاماً ، فيما اذا كان قد كتب مذكراته اجابني : انه لم يعتمد على تدوين الاحداث طالما ان ذاكرته قادرة على استعادة خيوط حياته خيطاً ، فخيطاً .

ولا شك ان الاديب الذي يكتب سيرة حبه بعد مضي اربعين عاماً على ساعات النشوة التي عاشها ، يشبه الناسخ الذي يجدد الصورة الممحوة ، او التي لم يبق منها الا

(١) دار صادر — دار بيروت

بعض الخطوط الرئيسية . لان الزمن ألد اعداء العواطف . فهو الذي يبدل الحب بالبغض ، والسعادة بالتعاسة ، والفرح بالترح . فكم عدو اضحى صديقاً . وكم صديق اضحى عدواً . ناهيك عن البون الشاسع بين الاديب الشاب الذي يكتب تجربته الغراميـــة ، والاديب الكهل الذي يسرد ذكريات تلك التجربة .

وكان بودي ان يكتب ميخائيل نعيمة مراحل حياته الثلاث في اوقاتها ، مثلما سجل « ليبلا » قصيدته : انا السر الذي استترا ، ليصح اعتماد اعترافاته كمرجع غير ثاني . على ان تأتينا المراجع الاخرى بدلائل المقارنة ، والايضاح والاستنتاج . ولكن مثل هذا لم يحدث فافتقدنا الشيء الكثير . ولم نعثر في كتاب ثريا ملحس (ميخائيل نعيمة الاديب الصوفي (١) » الا على بعض اصداء اناشيد نعيمة في كتبه الاربعـــة والعشرين .

ولم تخصص الاديبة ثريا في الكتاب المذكور الا فصلاً ضيقاً في الحب عند نعيمة . وراحت تقيس ناسك الشخروب في مقاييس الصوفية والنبوة عابرة بالحب — محور حياته — عبور سيارة الانقاذ الميممة شطر هدفها . وغاب عن بالها ان الحب كان نجم القطب الذي اتجهت نحوه سفينة ميخائيل نعيمة .

وعلى الرغم من هذا ، وذاك فميخائيل نعيمة انسان ، لايوزن إلا بغير موازين الناس . ولعلنا في « سياحته القصيرة ابان دورة حياته المسطرة في كتبه » نعثر على خريطة حياته ، نبسطها على الارض فنتعرف على دقائق خطوطها .

فاريا

« يا الله اي ورطة هي هذه الورطة ؟ ماذا اعمل بقلب لايرى له حياة الا في قلبي ؟ بل ماذا اصنع بقلبي ترتمي عليه القلوب ، وهو لم يجد بعد قلباً يرتمي عليه ؟ » كيف يتأفف الشاب عندما يشم عبير الورد لاول مرة ؟ كيف يصور الكهل لواعج الحب الذي ابتلي به وهو في شرخ شبابه ! القلوب كثيرة في بولتافا وضواحيها ، لكن التأمل في الحياة يستبد بالشاب « ميخا » فيهرب من وجوه الاناث ليلقى ثبات الطبيعة ، وصقيع الشتاء ، والغربة :

« اخي من نحن ؟ لا وطن ولا اهـل ولا جار
اذا نمنا اذا قمنا ردانا الخزي والعـار
لقد خمت بنا الدنيا ، كما خمت بموتانا
فهات الرفش واتبعني لنحفر خندقاً آخر نواري فيه أحياناً .

« واذا بفاريا تنهض عن كرسيا ، وبلمح

---

(١) دار صادر — دار بيروت

الطرف تطوقني بذراعيها ، وتنكب على فمي بشفتيها مرددة عند كل قبلة : خذها . خذها تذكاراً من فاريا ! »

وهنا يرضخ الشاب طـالب السيمنار Seminar فيلج الباب الضيق بين قلبين ، وزوجين لم يُلق كلاهما للآخر . و « هذه المرأة التي بين يدي ما ذنبها اذا هي تعلقت بي تعلق الغارق بحبل النجـاة ؟ » « والويل للشرائع البشرية كيف تربط كوناً بفتـاة لا تجانس بينها وبينه على الاطلاق . » اذن فما عليك يا ميخا الا ان تنقذ هذا الغارق او « تروي نزوات الشباب التي تضج في لحمها ودمها . » فهل كان قلبك يا ميخا العاشق الولهان مقيداً ؟ فقلت :

« يانهر ذا قلبي اراه كما اراك مكبلا
والفرق انك سوف تنشط من عقالك ،
وهو .. لا »

لا ليست هذه الهجعات الا تذكاراً من فاريا . وهل الحياة غير ذكرى ؟ فيا نفس :

ان سمعت البلبل الصداح بين الياسمين
يسكب الالحان ناراً في قلوب العاشقين
فاخبريني هل غنا البلبل في الليل يعيد
ذكر ماضيك اليك .

اجل يا صديقي العزيز لقد قال بارفيدس في اصل الخلق : « ان الحب كان قبل غيره من الآلهة ... »

بيلا

تقول الاديبة ثريا ملحس : « احب نعيمة نفسه اولاً ، ثم انطلق بعد الى الانسان ، والى الله ثم الخليقة ، والوجود » . وتعني من ذلك ان نعيمة أحب نفسه لانه عرفها عن طريق تأمل ذاته . ولما وجد فيها الرفعة والشموخ بدأ صراعه مع الهوى الذي يجتاحه في شبابه ، واراد ان يسمو فوق الأعاصير الانسانية ، لتكون طينته غير طينة الانسان . لكن « القدر » شاء له التي سماها « بيلا » فقـال ليبرر لنفسه الحب : « يا الله هنا كذلك — كما في غيرا سيموفكا — (١) رجل وامرأة لا يجمع بينها اي جامع . وبينهما تباعد كالذي بين الزيت والماء . ولكن القانون المدني ، والقانون الكنسي قـد وجدا مسوغاً لجمعها في رباط لعرفكه » . وشاء القدر ايضاً ان تكون « بيلا » كفاريا لاتنجب اطفالاً . الا انه يصفها بالشكل الآتي : « تبدو في الثلاثين من عمرها . لها وجه مستدير جميل ناعم هادىء لا اثر فيه للمساحيق . ولعل اجمل ما فيه هو الفم بشفتيه الدقيقتين ، القرمزيتين . ثم العينان الزرقاوان ، الواسعتان اللتان لم تفقدا بعد حلاوة الحياه . ثم مسحة من الحزن والألم المكبوت تطفو عليه لمة ، وتغيب لمة ، فتجعله يبدو كوجه فتاة استبد بها حلم بعيد المنال ، او مات في قلبها حلم جميل لذيذ . اما صوتها فيسيل عذوبة وانوثة » . ولم ينشر

---

(١) اسم مدينة في الاتحاد السوفييتي .

هذا الوصف ، وربما لم يحرره الا بعد مرور اكثر من ثلاثين عاماً. وهنا يهتم بثلاث نقاط: جمالها الطبيعي الذي يؤثره نعيمة ، لان طبيعة حنين تنفر من كل جمال اصطناعي ، ومسحة الكآبة التي يجدها مبعثاً لشفقته « لانه مخلوق ليخفف الالم عن الناس » وكيف له ان يخفف الالم المكبوت الناجم عن موت الحلم الجميل ؟ هل هناك سبيل آخر غير تجديد هذا الحلم في طيفه بالذات ؟ فيجب عليه ان يخلص هذه الحسناء من العذاب . لان العذاب لم يخلق لمثلها. وشفقته التي احالتها الى حب « انوثتها وعذوبتها » هي الطريق الامثل لدخول القلب الثالث بين هذين القلبين المتناقضين ، وربما كان يرى فيها مرآة نفسه .. فكلاهما مكبوت الالم ، ثائر على التقاليد العمياء ، باحث عن القلب الذي يستحقه ، فيقول في قصيدة آفاق القلب :

اقلبي احكم ولا ترهب
فما منك من مهرب
وقل للفكر ان القلب
بحر شاسع طام
يقاس بغير مقياس
افاق القلب ، واطربي
افاق القلب واحربي
فنم يافكر او فاخضع
لقلب كان من حجر
فصار اليوم من لهب .

أجل لقد استيقظ قلب الاديب الشاب على نغمة « بيلا » المزعومة بحق زوجها . فهي لم تخلق له . وانما لتحب ميشا . وهو « ليس عابر سبيل » كما يقول . وتريده الفتى الذي تحلم به . وكان إن انقضت عطلة الميلاد وانا ، وبيلا في عرس من اللذة والغبطة . لقد انهارت ، وكأنها من الكرتون ، جميع السدود التي اقمتها في وجه شبابي ، ووجه قلبي منذ ان انقطعت علاقتي بفاريا من ثماني سنوات» ليست سدوداً كرتونية وحسب ، بل هكذا تخيلت فترة الجدب على انها حواجز اقمتها بالذات وما كان من السهل عليك العثور على العبير في وردة مل . ولما تنسمته في جارتك تفتحت بصيرتك الغافية . و « ان يكن هنالك من اثم فهو اثم الطبيعة التي جعلت ذلك الدم قابلا بشرارة تنطلق اليه من دم فيه مثل ما فيه من الحرارة ، ومن قابلية الغليان والفوران» عندئذ انطبعت بعروضها اللحمية، والنفسية. واذ بالإله العجيب يلهمك اروع الاناشيد ، واذ بآلهة الانوثة تستأثر بك ، فتخرجك عن طبعك الصامت ، وتخلق فيك روح المغامرة، حتى تحاول ان توحد « القلب والعقل معاً ، او الحب والفكر في ضمير الله . »

وأي انسان كان يضاهي آنذاك بيلا التي آنست فيك نقيض زوجها . فلا عربدة ، ولا شتم ، ولا صياح ، ولا فظاظة . كل شيء في اعماق الحب .. وليس اروع من الهمس يلسجم ووشوشات القلوب ! اجل همس الجفون العاشقة التي لا تدين بغير مذهبها .

بعد هذه النعمة الالهية التي خلصتك من الحرمان وعذابه يحق لك ان تتساءل فيما إذا كنت « جزءاً » او فيضاً من الله » وشأنك في ذلك شأن الذي عثر على الثروة بعد جهاد مرير صامت لم يعلنه عــلى الملأ ، واكتفى بحواره للاماني في قصيدة « حبل التمني »

كلنا يزرع الاماني ولايحصد

بعــــد العناء غير الاماني

والاماني يقرضن حبل الاماني

كالثواني يقرضن حبل الثواني

فكم كان أديب المهجر يتمنى الحب آنذاك وهو يبصره القوة ، والالهام ، والغبطــة . وهذا الحب لم يدركه بمغامرة مضنية ، ارقته الليالي الطويلة ، واحرقت من ايامه العدد الذي لايحصى. وإنما بأيسر سبيل. «فبيلا» وميشا في بيت واحد . هو مستأجر عند مستأجرة ، ثم مستأجر عند مالكة . وليس بينهما الا طيف « الزوج » الذي لايعكر حبهما لحظة واحدة الا ليعززه لحظات ، ويطيل عمره سنوات . فيتخيل حينذاك انه الرجل الذي اعده الله لبيلا ، فيقول في قصيدته المهداة الى U.O.B.

أنا السر الذي استــــترا

بروحـــك منذما خطرا

بـــال الكائن الاعلى

خيال العـــالم الادنى

فصور من ترى بشرا

فهاتي يداً ، وهاك يدي

على رغدٍ ، على نكــد

معاً نبقى الى الابدِ

فهل بقي نعيمة معها حتى الابد ؟ أليس هو القائل « إن الحب هو الجوهر الفرد الذي منه الكون، وبه يقوم ..» ولكن وجود الشخص الثالث الذي يتألم كان يعكر عليه الغبطة . فهاري العربيـــد الفظ يعود الى سكره ، وعربدته ، ونفس نعيمة تلح عليه بالخلاص من الألم : ان « قلبه الكاني » يريد الخلاص من عثرته . أليس حبه لبيلا سقطة ؟ لكن أثرها لا يصل حد الخلق ، وانجاب الاطفال غير الشرعيين بنظر القانون المدني والكنيسة . وهذه السقطة لابد منها للرجل ، والمرأة على حد سواء . فكلاهما خلق للاتصال بالآخر . وليس اسلم من هذا الظرف الذي كان يعيش فيه نعيمة . فبين سريره وسريرها جدار على الأكثر ، وبين ذاته وذاتها ذات ثالثة شفافة لا تعيق اتحادهما ، ولو لحين. فيناجي البحر :

كأننا فيك مثلي قلبان : عبد وحر

ويقول في قصيدة العراك :

دخل الشيطان قلبي فرأى فيه ملاك

وبلمح الطرف ما بينهما اشتد العراك

ويقول في ترنيمة الرياح :

طوقيني بنـــور النجوم
وافتحي لي قصور الغيوم
واتركيني هنـــاك
فوراء السمـــاك
قـــد لمحت مـــلاك
باسطاً لي الجنـــاح
هللي هللي يارياح

وخمس سنوات كما قـــال والنجوم تهلل لحب بيلا . ولم يتكلف بشيء الا أن زاد أجر السكن في بيتهـــا ستة عشر دولاراً بالشهر الواحد . فحققت بيلا ما تريد . وارادتها لا تعـــدو « ان تنعم بالعشيق وحبه في غير صخب نيويورك ، وفي جو ينسيها انها متزوجة وزوجها غبي قط . » فهي كما قال : « تعرف طعم الحياة قبل ان تعرفه ... » وهناك في البيت الريفي بات بمستطاع نعيمة ان يجمع شتـــات فكره ، وشتات نفسه . » حتى بدت المزابل من الحياة والجمال في الصميم » . وعاودته ذكريات صباه في سفح صنين مع العواصف الثلجية . ومع الثلوج التي تغسل ادران الارض يتراءى الطهر لنعيمة خيراً من هذا المغامس الذي يؤلم غيره . ولكنه لما عاد من نزهة العاصفة الثلجية ، وافضى الى بيلا بما دار في خلده ، كان جوابها فيضاً من الدموع الحارة الخرساء . « والحب اذا ابكى انزل الآلهة عن عروشها » . ثم كان لابد له ان يهجر ذلك البيت بعد ان عاد هاري ذات ليلة يعربد مخموراً متذرعاً بهيام العشيقين . وبذلك تقضي المروءة ، والشهامة . اما الدموع وضجات بيلا فهلا تنزل الآلهة عن عروشها هذه المرة ؟ لا ، لانها فارقت المعنى الكامل للحب .. بعد ان سئمها ميشا ، وتســـرب الملل الى قلبه ، فعزم ان ينتقل الى بيئة اخرى ، يستريح فيها من الخوف الذي يسيطر على ساعاته في بيت بيلا . . ويتزوي الى كوخ اخيه في جبال « والا والا » يحاسب نفسه ، ويرى التناقضات تنسجم كلها ابدع الانسجام فلا يرى فارقاً بين بيلا وهاري ، او بين كوتيا ، وفاريا . والأديب الشاب يفر من « المعابد التي تضاء فيها الشموع ، ويحرق البخور ، والاوكار التي يفح فيها الفحش ، والفجور » فهل تاب الواله بالعاقرات ، والمتيم بالمتزوجات؟

وقال عنها في كتابه كرم على درب : « كلما وضعت يدي في يد ما لمستها من قبل قلت : تبارك الله فتح جديد ، وكنز لانفاد له ، »

القوة العمالية العالمية

ترجمة هشام الدجاني

تقول الفكرة الاقتصادية القديمة إن أحسن الدلائل لقياس التقدم النسبي لاقتصاد بلد ماهو نسبة قوته العمالية التي ماتزال تعمل في القطاع الزراعي . وفي الفترة الاخيرة قويت هذه الفكرة بشكل أوسع . ويرى بعضهم الآن ان بلداً مايبدأ « انطلاقه » على حد تعبير روستو، عندما تكون نسبة سكانه العاملين في الزراعة تتراوح بين ٤٥ الى ٥٠ ٪ . ومهما كانت نسبة الحقيقة في هذه النظرية فهي تريننا بالتأكيد أن الاحصاءات العمالية ذات جاذبية قوية بالنسبة لرجال الاقتصاد.

تحليل جديد

لذا كان للاحصاءات التي قام بها مكتب العمل الدولي (ILO) في جنيف مؤخراً عن القوة العمالية العالمية، مصحوبة بالتحليل، أهمية فائقة . وأول ماتظهره هذه الاحصاءات وجود مليار و ٢٩٦ مليون نسمة في ميدان العمل في العالم (ونذكر بأن كل احصاء هو من عام ١٩٦٠). ومعظم هذه القوة العمالية متركزة في آسيا . فهي تبلغ في الواقع ٧٢٨ مليون عامل او ٥٦٪ . وتتصدر الصين هذه القائمة بما يزيد

* (عن مجلة : ايكونوميست – The Economist) الانكليزية – عدد نيسان ١٩٦٧

عن ٣٠٠ مليون عامل تليها الهند في المركز الثالث بـ ١٨٨ مليون (ولكن يجب ان تؤخذ هذه الاحصاءات بشيء من الحذر) .

أوروبا القارة الثانية

والقارة الثانية كما قد يتوقع أي انسان هي اوروبا (واوروبا حسب تحديد مكتب العمل الدولي هي كل المناطق الواقعة غربي روسيا ، اما الاتحاد السوفياتي فهو قارة منفصلة) . وقد بلغت قوة اوروبا العمالية ١٩١ مليوناً من العمال تتوزع على الشكل التالي : ٦٠ مليوناً في غرب اوروبا ٤٩ مليوناً في شرق اوروبا (الكتلة الشيوعية باستثناء روسيا) ، ٤٧ مليوناً في جنوب أوروبا و ٣٤ مليوناً في شمالها .

والمقصود بدول أوروبا الغربية هو دول السوق المشتركة مضافاً إليها النمسا وسويسرة ، عوضاً عن ايطاليا ، أما الرقم الذي يبلغه عدد العمال في أمريكا الشمالية فهو ٧٧ مليون عامل منهم ٧١ مليون عامل في الولايات المتحدة .

بيان احصائي

(١) توزع القوة العمالية بين القارات

اسم القارة	القوة العمالية فيها (مقدرة بالملايين)
امريكا الشمالية	٧٧
« اللاتينية	٧١
الاتحاد السوفيتي	١١١
افريقيا	١١٢
اوروبا	١٩١
آسيا	٧٢٨
اوقيانوسيا	٦

(٢) توزع القوة العمالية في بعض البلدان

اسم البلد	القوة العمالية فيها (مقدرة بالملايين)
الولايات المتحدة	٧١
البرازيل	٢٣
جنوب افريقيا	٦
الهند	١٨٨
اليابان	٤٥
بلجيكا	٤
فرانسا	٢٠
المانيا الغربية	٢٦
ايطاليا	٢٠
بولنده	١٤
بريطانيا	٢٤
استراليا	٤

القوى الفعالة :

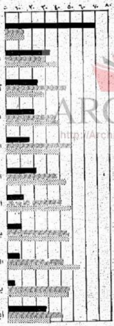
إن عقد مقارنة بين القوة العمالية ونسبتها الى مجموع السكان توضح جانباً هاماً. فهي ترينا مثلاً أنه بينما يكون ٤٨٪ من مجموع سكان ألمانيا الغربية فعالين يكون ٤٠٪ في الولايات المتحدة . وبريطانيا واليابان لها معدلات طيبة في هذا المجال كذلك . وبغض النظر عن عدد النساء العاملات ؛ فان المشكلة تتوضع في الى أي سن تبقى القوى الفعالة في المدارس ؟ في امريكا مثلاً تبقى نسبة كبيرة من السكان في المدارس حتى سن الثامنة عشر .

القطاعات الاخرى:

ومن القطاعات الهامة الأخرى لاستقطاب الأيدي العاملة : **الصناعة ، والخدمات**. ويتوضح توزع القوى العاملة بين القطاعات الرئيسية الثلاثة : الزراعة والصناعة والخدمات في المخطط رقم ٣ ؛ وذلك في العالم وفي القارات ، وفي بعض البلدان المختارة . ولعل ارقام الاتحاد السوفيتي تدعو الى الدهشة حقاً ؛ فالاتحاد السوفيتي ما زال يستخدم نصف قوته العمالية في الزراعة والنصف الآخر يتوزع بين الصناعة والخدمات .

(٣)

نسبة توزعها في بعض البلدان



توزيع القوى العاملة بين القطاعات الثلاثة : الزراعة والصناعة والخدمات



خمس نقاط بارزة :

ثمة خمس نقاط في هذا الموضوع تستحق الابراز . وهذه النقاط هي :

١ — بينما لاتزال نسبة العاملين في الحقل الزراعي تعتبر دليلا عاما عما اذا كان بلد ما متقدما اقتصاديا او غير ذلك ، فاننا نجد تفاوتا كبيرا حتى بين الدول التي هي على درجة كبيرة من التقدم . فبينما نرى نسبة القوة العاملة في حقل الزراعة في المانيا الغربية ١٤٪ (عام ١٩٦٠) نجد هذه النسبة ٤٪ في بريطانيا و ٨٪ في الولايات المتحدة . اما النسبة في فرنسا فهي١٢٪ وفي النمسا ٢٣٪ وفي الارجنتين ٢١٪ .

٢ – ان نسبة السكان العاملين في الزراعة تتناقص بسرعة في الدول المتقدمة ولكنها اقل تناقصاً في الدول الاقل تقدماً . وقد عقد المكتب الدولي للعمل في جنيف دراسة مقارنة حول هـذا الموضوع بين نسبة العاملين في الزراعة عـام ١٩٥٠ وعام ١٩٦٠ في بعض البلدان ، فخرج بالنتائج التالية :

نسبة القوة العاملة في الزراعـة وتغيرها في عشر سنوات

اسم البلد	النسبة عـام ١٩٥٠	النسبة عـام ١٩٦٠
كندا	٢٠٪	١٢٪
البرازيل	٦١٪	٥٢٪
الهند	٧٤٪	٧٠٪
اليابان	٤٦٪	٣٣٪
بلجيكا	١٣٪	٧٪
تشيكوسلوفاكيا	٣٨٪	٢٦٪
فرانسا	٢٨٪	٢١٪
المانيا الغربية	٢٤٪	١٤٪
هنغاريا	٥٥٪	٤٠٪
هولنده	٢١٪	١١٪
سويسرة	١٧٪	١١٪
اوستراليا	١٣٪	١١٪
بولنده	٥٨٪	٤٨٪

تغيّر حاد

إن التغير في بعض البلدان المتقدمة كان حاداً جداً بالفعل . ففي بلد كاليابان مثلاً تناقصت النسبة ١٣٪ (أي من ٤٦٪ الى ٣٣٪) . ومن الجدير بالذكر كذلك أن بلدين اوروبيين شرقيين قد تناقصت فيها النسبة الى حد مشابه . فقد انخفضت النسبة في تشيكوسلوفاكيا من ٥٥٪ الى ٤٠٪ وكذلك الامر بالنسبة للمجر .

ولكن في الاجزاء الأقل تقدماً في العالم ، كان التقدم في هذا المجال ابطأ بكثير . ففي الهند مثلاً لم تنخفض نسبة العاملين في حقل الزراعة الا ٤٪ في غضون عشر سنوات .

واذا اخذنا النسبة العامة في مجموع الدول الأقل نمواً لوجدناها ٢٪ ؛ ولما كان سكان الدول المتخلفة يشكلون النسبة الاكبر في مجموع الصورة البشرية ، فان التغير العام يبقى بطيئاً في الواقع . ومازالت نسبة المشتغلين في الزراعة في العالم حسب احصاءات مكتب العمل الدولي (ILO) تزيد عن ٥٥٪ .

٣ ـ الصناعة

إن نسبة القوة العاملة في الصناعة تتجه نحو الارتفاع في الدول التي تخطو نحو التقدم الاقتصادي . وهكذا نرى أن ٥٣٪ من القوة العاملة في الولايات المتحدة تعمل في الخدمات و٤٠٪ فقط يعملون في الصناعة حسب أحصاءات (ILO) .. ولكن هناك من يعتقد بأن نسبة المشتغلين في الخدمات في الولايات المتحدة هي ٦٠٪ وأن نسبة المشتغلين في الصناعة لا تزيد في الواقع عن ٣٣٪ .

ومن جهة اخرى نرى نسبة المشتغلين في الصناعة في المانية الغربية تصل الى ٤٩٪ بينما لا تزيد نسبة المشتغلين في حقل الخدمات عن ٣٨٪ . وبعبارة اخرى تبدأ الخدمات في الازدياد بسرعة ، حسب النظرية التقليدية ، بعد الوصول الى مرحلة أكيدة من التطور .

٤ – الخدمات

في الواقع أن الخدمات لا تستقطب القوى العاملة الا في كندا والولايات المتحدة. اما في اوستراليا ونيوزيلاندة فهي لا تستهلك سوى ٤٩٪ من هذه القوى. أما النسبة في اوروبا فتبدو معقولة. ولكن يلاحظ أن حقل الخدمات يصبح اقل القطاعات الثلاثة في ثلاث مناطق من اوروبا هي: جنوب أوروبا وشرق اوروبا والاتحاد السوفيتي.

ان قطاع الخدمات في عديد من البلدان الاقل تقدماً يعتبر ضخماً جداً كذلك. ولكن من الواضح مع هذا انه اذا كانت نسبة العاملين في الحقل الزراعي قد انخفضت في غضون عشر سنوات في هذه البلدان (من ١٩٥٠ – ١٩٦٠) بينما زادت نسبة المشتغلين في حقل الصناعة، فان نسبة المشتغلين في حقل الخدمات بقيت ثابتة.

وهذا أمر جزئي لأن النمو في هذه البلدان غالباً ما يعتمد على الزيادة السريعة في التجارة الخارجية التي تتطلب بدورها توظيفاً كبيراً من اجل تسهيلات الموانىء والخدمات الثانوية. وهذا يعيق أية حركة انتقالية واسعة للعمال من حقل الخدمات الى حقل الصناعة، بينما لا يعيق حركة الانتقال من الزراعة الى الصناعة شيء.

٥ – ان الدول المتقدمة تملك ثلث القوة العمالية العالمية فقط، ولكن لديها ٦٢٪ من القوة العمالية الصناعية. والتغير في هذه النسبة لم يكن كبيراً في السنوات العشر الاخيرة. ويؤمل ان تتغير هذه نحو الأحسن، ولكن الفرص قليلة.

النظام والعادات في :

ساموا الغربية

أول دولة استقلت في المحيط الهادي

ترجمة نصر الدين البحرة

كانت « ساموا الغربية » اول دولة تحصل على الاستقلال في المحيط الهادي في اول كانون الثاني عام ١٩٦٢ بعد ان ظلت « نيوزيلندة » تحكمها طوال خمسين سنة .

وبالطبع فان الكثيرين يمكن أن يرغبوا في زيارة هذه الجزر « البولونيزية » المثيرة .. ولكن ينبغي ان يعلموا انها ليست رغبة سهلة التحقيق ، اذ ان «ساموا الغربية» لم تقم علاقات دبلوماسية حتى الآن مع اي من اقطار الدنيا — باستثناء نيوزيلندة التي تمثلها في جميع شؤونها الخارجية — كما أنها لاتزال حتى الآن .. خارج الامم المتحدة .. وقد استطاع مؤخراً اول صحفي سوفييتي « فاديم كاسيس » ان يقوم بزيارة الى هذا القطر فكتب دراسة عنه في مجلة « الأزمنة الحديثة » قال فيها :

(*) عن مجلة الأزمنة الحديثة السوفييتية العدد — ٩ — آذار ١٩٦٧ الصادرة باللغة الانكليزية

ان الوقت العادي الذي تستغرقه الطائرة بين موسكو والعاصمة الساموالية « آبيا » لايقل عن اربعين ساعة ، ولابد خلال ذلك من الانتقال من طائرة الى اخرى ، ومن خط جوي الى آخر ، عدة مرات في عدد من الاقطار المختلفة .. قبل ان يتراءى شاطىء «ساموا الغربية» الرملي ، اخيراً تحت جناحي «الداكوتا» العتيقة .

وهذا القطر هو في الواقع ارخبيل فيه جزيرتان كبيرتان ومتقاربتان : «أوبولو» و « سافايي» وبضعة جزر اخرى صغيرة . ويعد سكانه حالياً ١٣٥ الف نسمة . وكل هذه الجزر جبلية من أصل بركاني ، تغطي جبالها النباتات المدارية ، وتمتد على شواطئها اشجار جوز الهند ، والكاكاو .. والموز ، في حين تستلقي قراها القليلة في ظلال الأشجار .

يعتمد اقتصاد ساموا الغربية على جوز الهند والكاكاو والموز ، وتشكل « الكوبرا » — جوز الهند المجفف — الصنف الرئيسي في تجارتها . وقد ظلت حتى الفترة الأخيرة تتعامل مع الشركات الانكلو — المانية ، ولكنها تخلصت الآن من هذه الاحتكارات التي كانت تملي عليها اسعارها الخاصة . وبدأت ساموا الغربية الآن تبيع « الكوبرا » في السوق العالمية ، الا ان اسعار الكوبرا هذه غير ثابتة ، مما يترك تأثيراً سيئاً على اقتصاد ساموا ، والشيء ذاته ينطبق .. على الكاكاو .

وتأمل ساموا ان تبيع هذه السنة ١٤٫٥٠٠ طن من الكوبرا والفي طن من حبوب الكاكاو .

وكما هي الحال في الأزمنة الغابرة ، فان المجتمع العائلي او .. الـ « آيغا » هي الوحدة الأساسية للمجتمع الساموالي ، وكبيرهـا الـ « ماتاي » يلعب دوراً هاماً .. ان لم يكن رئيسياً في حياة القرية كلها .

* * *

أقبل المواطنون بالتتابع من كل مكان نحو اكبر ساحة وسط قرية « فايوفا » ،

وكان رئيس القرية « سينفا – تو – بوابو » قد نادى قبل ذلك بحوالي ربع ساعة « تابوتوي » – وهو اكبر صياد في القرية – وأمره أن يدق الناقوس الخشبي الذي يستعمل عادة لدعوة القرويين جميعاً .

هذا هو الأسلوب المتبع في ساموا : المسائل المهمة تعالجها الجماعة كلها .

كانت المناسبة انتخاب «ماتاي» جديد لواحدة من الـ « آيغا » . وعندما التقى الجميع . اتخذ « سينفا – تو – بوابو » مكانه بينهم ، ولم يكن لبسه أي شيء يميزه عن سواه ، ربما ، باستثناء كتفه اللتين كانتا أعرض قليلا من سواهما ، والـ « لافالافا » – قطعة تشبه قبة السترة – التي بدت أكثر جدة من غيرها .

كان النــاس ينظرون الى رئيسهم باحترام ، وقد تجمهر منهم حوالي ٥٠٠ شخص في ساحة القرية، وهي المكان المعتاد لاجتماعهم . والى جانب الرئيس وقف شخص آخر مرموق هو الخطيب « فا – آرموا – أوغي » مهمته أن يتحدث الى الشعب ، أو الى ضيوف الرئيس الهامين ويستطيع الخطيب حسب القوانين المحلية ان يحل محل الرئيس في حال غيابه ، كما يكون أحياناً القوة الحقيقية التي تقف وراء الرئيس .

تتضمن الـ « آيغا » على العموم من ٥٠ الى ٦٠ عضواً . وتقضي الأعراف بأن يصبح « ماتاي » الـ « آيغا » الأكبر رئيساً للقرية . ويحتفظ الماتاي بمنصبه مدى الحياة . ولكنه لا يورثه . القرية كلها تنتخبه ، فاذا شنت اجتماعات « الماتايات » هجوماً جدياً عليه ، طرد ، وانتخب آخر مكانه . ولكن هــذا نادراً ما يحدث .

وينتخب الماتاي الجديد عادة لدى وفاة القديم . وكانت هذه هي الحال في «فابوفا» حينئذ فقد عقد الاجتماع لانتخاب قائد جديد للآيغا « اليتيمــة » التي تقف أكواخها في النهايات الجنوبية من القرية .

قدم الرئيس مرشحه المناسب بعد أن استشار الخطيب والماتايات الآخرين ، على حين قدمت الآيغا مرشحها الخاص .

لقد أبدى مجلس الماتايات ارتياحه الى مرشح في الاربعين هو « بولوتو » .. أما الآيغا ، فقد فضلت مرشحاً في الخامسة والعشرين هو « تو — أوتو » .

تكلم الخطيب « ف . ا . اوغي » في البداية مطولا وبذل جهداً واضحاً لدعم « بولوتو » .. فأصغى القرويون في اهتمام وارتياح وهزوا رؤوسهم . وكانوا جميعاً يعرفون جيداً أن الرئيس « تو — يوايو » هو الذي يتكلم على شفتي الخطيب .

احتل المكان بعدئذ خطيب الآيغا وبدأ باطراء الخطيب .. بأسلوب دبلوماسي ثم انتقل الى امتـــداح « تو — أوتو » الشاب بعبارات راقية ، وشبهه ببركان يمتلىء حيوية ، وأفاض بالثنـــاء على حكمته وقدرته على التنظيم ، كما أطرى انسانيته وعدالته .

لم يثله أحـد .. وهز القرويون رؤوسهم مرة ثانية ، وبدوا كما لو أنهم يزنون كل كلمة من كلمات الخطيب ، ولم يزيدوا على أن قالوا : سويفوا — شكراً — وعندئذ جلس الخطيب .

استمر النقاش حول المرشحين حتى حان وقت صلاة المساء .. دون الوصول الى اتفاق .

لاشيء يقرر بالاقتراع ، وعلى كل من الطرفين أن يتبادل الرأي مع الآخر .

.. في الصباح دق الناقوس الخشبي ، والتأم الجمع ثانية ، وعاد الجدل فاحتدم بين الخطباء ، وبقي الأمر كذلك حتى هبط الظلام .. وأيضاً : دون الوصول الى اتفاق .

في اليوم الثالث فقط .. استطاع مؤيدو المرشح الشاب ان ينتصروا .

بعد ذلك مباشرة ، تقدم وُجهاء القرية نحو كوخ يدعى « فال » في ساموا وفيه يجري احتفال الـ « كافا » ، وهو شراب روحي قوي يستحضر من جذور بعض النباتات البرية . وتعقد احتفالات الكافا عادة في ايام العطل وبعض المناسبات الخاصة .. وبالطبع فان انتخاب الماتاي هو إحدى المناسبات الراقية ، والمواتية .

جلس الخطباء والماتابات على الحصر، وقد أسندوا ظهورهم البرونزية العارية الى مسند خشبي طويـــل ، في حين اتخذ الرئيس وخطيبه مكانيهما في صدر الكوخ .

أمسك الرئيس بيديه مروحة كبيرة مصنوعة من أجود ألياف جوز الهند — رمز سلطته ، بينما طوق الجميع أعناقهم بعقود من أزهار الباندانوس .

أمر الرئيس بدعوة أجمل فتاة في القرية لتقوم بتحضير شراب الكافا ، كما أمر بجلب المواد التي يصنع منها .

وجيء بوعاء خشبي كبير ، وعدد من الأواني امتلأت جميعاً بماء من نبع الجبل ، ورزم من الياف جوز الهند .. غسلت حتى صارت بيضاء كالاسفنجة البحرية الموضوعة وسط الكوخ .

ناول « فار آرموار أوغي » ملكة الجمال قليلاً من الجذور ، وسألها أن تبدأ بتحضير الشراب . فأطاعته الفتاة ، واقتطعت جزءاً من الجذور وراحت تقضمه بأسنانها الحادة البيضاء . وكانت كل دقيقتين أو ثلاث .. تنحني على الوعاء الخشبي لتضع فيه ما مضغته ، وتصب عليها ماء ، ثم تخضه ، وتخرجه بعد ذلك لتعصره .. وبقيت كذلك ، الى ان استخرجت جميع الكحول الموجود في الجذور .

وأخيراً .. صار الكافا جاهزاً .

وبإشارة من الخطيب قدمت الكأس الأولى — وهي قدح مصنوع من قشرة جوزة الهند — الى الرئيس .

رش الرئيس نقاطاً قليلة من الكافا على الأرض ، زلفى الى الإله « باغاتو » ، ورتل بصوت مرتفع كلمة « مانويا » أي : في صحتنا ، ثم جرع ما تبقى في كأسه .. رشفة واحدة .

.. عندئذ تقدم الماتابات كل بدوره فملؤوا أقداحهم من الوعاء الكبير .

وفرغ الوعاء خلال خمس عشرة دقيقة ، وبدأت الفتاة تحضر وجبة اخرى من الكافا .

بقيت في « فايوفا » حتى حان وقت صلاة المساء . كان الماتايات مخمورين حينئذ ، ودارت ألسن الخطباء بسرعة إلا أن أحداً منهم لم يحاول أن يرفع صوته ، أو يخطىء سواه .

وبينما كان الرؤساء يمرحون فان الحياة في القرية قد تابعت مجراها المعتاد ... الأطفال الصغار يجمعون جوز الهند ، متسلقين أشجارها الطويلة بسهولة ... والنساء يغلسن الثياب في الجدول ... والفتيان يغرسون شتلات الموز .. ولم يكن الرؤساء بالطبع ليستعجلوا انهاء أعمالهم .

* * *

إن على الماتاي واجبات محدودة ينبغي عليه أن يؤديها ، فهو يمثل القرية في اجتماعات مجالس الماتايات ، ويحفظ النظام ، ويراقب القيام بالطقوس الدينية ، ويعاقب المجرمين .

كلمة الماتاي هي القانون ، ومعصيته هي معصية لله . انتاج العامل جميعه .. الأرض .. مما تملكه الأسرة الكبيرة ، ذلك كله يدخل في حوزة الماتاي ، أو يقرر شيئاً آخر . وهو ، الى ذلك ، يوزع الأطعمة ، ويخص الأفراد المتازين في الآيغا بقطعة لحم طيبة ، ومن الطبيعي ألا ينسى نفسه خلال ذلك .

واذا لاحظ أن الأطفال لا ينالون رعاية كافية في بعض العائلات ، أمر أزواجاً آخرين أن يعنوا بهم ، فاذا لم يحصلوا هنا ايضاً على ماينبغي من الاهتمام .. أمر بنقلهم الى عائلة ثالثة ، وهكذا .. حتى يكبروا ، ويصبحوا قادرين على العمل . ومن الواضح أن هذا سبب قوي يكمن وراء خلو اللغة الساموالية من كلمتي « ماما » و « بابا » المتعارف عليه . هنا فقط : امرأة في سن الأمومة ، ورجل .. في سن الأبوة .

حين عدت الى « فايوفا » بعد بضعة أيام .. كان « تو — أوتو » الشاب يعد العدة لاحتفال الوشم ، وقد ماتت هذه العادة في هذه الجزر ، غير أنها مازالت

متبعة في بعض القرى.. خاصة في جزيرة « سافايي » .

ويتم الوشم بإبر مصنوعة من صدفة السلحفاة ، ومثبتة الى قاعدة خشبية طبقاً لنموذج مختار. ويستعمل الساماوليون سخام زيت الكاز - الشحار - عوضاً عن الألوان الطبيعية ، فيضعونه داخل الجروح التي أحدثت بالإبر ، فيسبب ذلك حرقة مؤلمة في المنطقة المحيطة بالوشم .. ولكن الساماوليين يعرفون نبتة يستعملونها في تخفيف الألم وشفاء الجروح .

حين وشم « تو - أوتو » ، لزم كوخه عدة أيام ، واشتركت القرية كلها في تمريضه ، ولسوء الحظ .. لم يكن لدي من الوقت مايكفي لأبقى وأرى صور الوشم التي طبعها على ساقيه .

وهنالك حكاية يتناقلها أهل ساموا .. وتقول : إن فن الوشم انتقل اليهم من جزر « فيجي » .

* * *

وجدت نتيجة لمحادثاتي المتعددة أن عدداً من الساماوليين يعتبرون أن نظام الماتاي .. لايكسر ، و ٨٣ بالمئة من السكان في ساموا الغربية هم طوع أيدي الماتايات .. الذين يتمتعون بقوة كبيرة .

بعض الباحثين البورجوازيين في الغرب يرون أن نظام الماتاي تقدمي وديمقراطي معاً .

وكان بين معارفي من الساماوليين نفر قليل تطوروا بحيث اتسعت آفاقهم ، وكانوا يتمتعون بحاكمة جيدة ، وهم يعتقدون أن الماتايات يعرقلون التطور الاجتماعي نحو الديمقراطية ، فان الهيئة القانونية في ساموا .. تتألف من الماتايات فحسب ، في حين أن افراد الشعب محرومون من الانضواء فيها بحكم العرف السائد . وقد سألني أصدقائي الساماوليون : كيف يمكن وصف هذا النظام ، على أنه لون .. من الديمقراطية ! ؟

بالمقابل .. فان كثيرين من الساماوليين مقتنعون بأن هذا النظام لابد أن يتغير عاجلاً .. أو آجلاً .

حبات زمرد

— تأليف : شفيق معلوف
— نشر : وزارة الثقافة بدمشق ١٩٦٦

تساءلت ، وأنا امسك بكتاب (حبات زمرد) للشاعر المهجري (شفيق المعلوف) : ماذا باستطاعة شاعر أن يقول خارج دنيا الشعر ؟

قرأت الدراسة الاولى التي القاها بالبرتغالية في جامعة سانباولو عام ١٩٦٠ وهي عن الادب العربي الحديث ، وقد تحدث فيها عن تأثر الأدب العربي ، والشعر خاصة ، بالأدب الغربي ولا سيما الشعر الفرنسي ، معدداً بعض المدارس الجديدة التي تأثر بها هذا الشعر كالرمزية والسريالية حيث يقول :

من هذا الخليط الثقافي المتوجح بين الرمزية والسريالية انبثق انصار الحديث ، هدفهم نشر الشعر الحر ، وتطويع الشعر العربي للاغراض المحدثـة ، والخروج بأساليبه على النمط التقليدي . ولم يكونوا هم اول البادئين بمثل هذه المحاولات في عصر النهضة ، فالشعر الحر قد عولج من قبل ، كما ان التطويع ليس

جديداً فقد شرع به من قبلهم آخرون . لكنهم اول من سلكوا سبلاً غريبة على اللسان العربي ، لم يعهد مثلها تاريخنا الادبي في الشذوذ والانحراف عن قابلية الشعوب العربية ومفاهيمها » .

اوقفتني قليلاً الجملة الاخيرة ، هذه التي يحتج بها الشاعر احتجاجاً ضمنياً على الشعر الحر ويتهمه بالشذوذ والانحراف والغربة . وتساءلت : ترى الى تنتهي احتجاجات القديم على الحديث ، والمدارس المغلقة على السهوب التي لاجدران لها ، والقوالب الحصينة على نوافذ النفس المشرعة للريح ؟ كما تساءلت بلا شماتة : الى متى تظل روح العقاد — رحمه الله — تتقمص ارواح بعض شعرائنا ؟

نحن نفخر بشعراء المهجر، وا كثر من ذلك ندرك انهم اول من بدأ كسر القوالب وأطل على العالم الكبير الممتد خارج تخوم الوطن العربي ، حاملاً معه عبق الشرق وسحره الروحاني ، ليمتزج بمادية الغرب وانسحاق انسانه المعزول الضائع ، دون ان يفقد اصالته واصوله ، في محاولة جادة للوصول الى العالمية . كما وندرك ان المهجريين كانوا البداية في ارساء الصوى الاولى على طريق الشعر الحديث . فهم بالتأكيد الجسور التي مدت بين الشرق والغرب في مسيرة الادب الشاقة والطويلة .

لكن في الوقت نفسه ندرك ان الشعر الحديث في الوطن العربي قد تقدم وركز رايته فوق ارض صلبة واصلة . ولم يكن ذلك التقدم على انقاض الشعر العربي القديم ، بل كان امتداداً له وانسجاماً مع روح العصر ، لقد اثبت الشعر الحديث وهو ليس شاذاً ولا غريب اللسان مرونة اللغة العربية وقدرتها الخلاقة وطواعيتها في التعبير شكلاً ومضموناً عن ارهف ما في النفس الانسانية من مشاعر . كما اثبت ان هذه اللغة ليست محدودة الآفاق تدور مفرداتها وكلماتها ومعاني هذه المفردات والكلمات داخل صحراء مغلقة وداخل انسان معزول عن العالم .

ان الشعر الحديث هو نزوع نحو العالمية ، وحتى في شكله النثري عندما يفقد الايقاع الموسيقي للوزن الخليلي ، يخلق ايقاعاً نفسياً موسقاً بمشاعر باطنية تشحنها الكلمة او الجملة المحملة بالمعاني والاحاسيس ، وتلونها الصورة . لنسمع الى هذا الشعر . الى هذه الكلمات السرية:

أخلق للريح صدراً وخاصرة ،
وأسند قامتي عليها .
أخلق وجهاً للرفض وأقارن بينه
وبين وجهي ،
أتخذ من الغيوم دفاتري وحبري
وأغسل الضوء
أطلق سراح الارض ، وأسجن
السماء ، ثم أسقط ،
كي أظل أميناً للضوء ، كي أجعل
العالم غامضاً ،
ساحراً ، متغيراً ، خطراً ، كي
اعلن التخطي .

انه الشاعر نفسه الذي يقول شعراً بطريقة تختلف :

ليس نجماً ليس ايحاء نبي
ليس وجهاً خاشعاً للقمر .
هوذا يأتي كرمح وثني
غازياً أرض الحروف
نازفاً يرفع للشمس نزيفه
هوذا يلبس عُري الحجر
ويصلي للكهوف
هوذا يحتضن الارض الخفيفة

ان شاعراً يتكلم على هذا النحو ، يخلق من اللغة العربية عجينة تلعب بها نفسه وقدرته الخلاقة ، انما يقذف بالشعر والكلمة العربية الى ماوراء الحدود ، تاركاً في النفس والآخر دوي الحزن والمجد والألم لا عن طريق موسيقى التفعيلات ، انما عن طريق الموسيقى الداخلية لعالم القصيدة المشحون ؛ الموسيقى النفسية في إيقاعها التراجيدي ونشرها لمأساة الانسان في هذا العصر .

هذا ما اوقفني بعض الشيء في هذه الدراسة التي تنتقل بعد ذلك وبسرعة نحو اغراض الشكل في الادب الحديث ،

والنثر الشعري بين العرب والافرنجة ، ثم اغراض المحتوى في هذا الادب ، ليعطي الكاتب بعد ذلك امثلة حية عن اللمح في الشعر العربي عند الشنفرى ، وامريء القيس ، والاعشى ، وعمر بن أبي ربيعة وغيرهم . ورغم ان تلك الالماحات الرمزية متفرقة وقليلة ، لكنها كانت معروفة عند العرب .

وفي مجال التحدث عن الفوضى في الادب الحديث يقدم نموذجاً غريباً هو الشاعر الشرارة « رامبو » الذي فرض منطقه الفوضوي في الشعر على أمة الادب فوضع في السابعة عشرة من عمره الواناً للأحرف الصوتية ، تركت بعده دوياً حيرت النقاد لهـذه العبقرية الطفلة التي تخطت عصرها .

ويرد الاستاذ الشاعر اسباب الفوضى في ادبنا الى استعجال الشهرة ، وسهولة تناول اعمال بالفاظ محدودة وكلام مزوق ، واستهتار بمقاييس الوزن واللغة والفن . مستثنياً من ادباء الحديث وشعرائه فريقاً اجاد في عطائه .

ولقد نسي ان يضيف الى هذه الفوضى المتسيبة والتي تعني فقدان الاصالة والموهبة ، عاملين اساسيين هما : محدودية الثقافة ، وضحالة التجربة .

انها سمتان رئيسيتان تلحـظـان في آثار العديد من ادبائنا الذين يكتبون كثيراً ويبدعون قليلا ، ثم يثنون لعدم الاعتراف .

بعد ذلك تدعو المحاضرة الى البحث في التراث العربي وكنوزه المخبأة ؛ لنفرض ادبنا الحديث على العالم ولنكون اوفياء لاصالتنا وخطاها القومية ، يقول المحاضر في ذلك : « ان تأثر الأجيال الطالعة بالاجيال الغابرة محدود . فهناك الذات المبدعة في الشاعر والاديب ، تطبع اسلوبه بشخصيته ، دون ان يتجرد من تراث قومه مهما تأثر بأساليب سواه » .

وفي الدراسة الثانية من (حبات زمرد) تأتي (**مقدمة الف ليلة وليلة**) . تتحدث عن منشأ هذه الحكايات الـتي ادهشت الشرق والغرب ، فانبثت فيها

دوح الشرق بكل نزوعها الصوفي والمادي في الاساطير الغريبة والرغبات النفسية .

تقول الاساطير ان اقدم وثيقة عن الف ليلة هي فقرة وردت في كتاب **مروج الذهب** لأبي حسن المسعودي . قال عنها في معرض كلامه عن اخبار « إرم ذات العماد » الاسطورية : « ان هذه اخبار موضوعة ، من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب من الملوك برواياتها . وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا ، والمترجمة من الفارسية والهندية والرومية ، مثل كتاب (هزار افسانه) وتفسير ذلك بالفارسية الف خرافة . واسم الخرافة بالفارسية (افسانه) والناس يسمون هذا الكتاب (الف ليلة) وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها شهرزاد ودنيازاد » .

ثم تتحدث الدراسة عن وثيقة **ابن النديم** التي جاءت بعد وثيقة المسعودي والتي أوضحت مجرى حكايا الف ليلة وليلة . من ان ملكا من ملوك الفرس كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد . فتزوج بجارية من اولاد الملوك لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد ، فلما حصلت معه بدأت تخرفه ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى ان أتى عليها ألف ليلة ، رزقت في اثنائها منه ولداً أظهرته واوقفت الملك على حيلتها عليه ، فاستعقلها ومال اليها واستبقاها .

ولعل أطرف حادثة بالنسبة لتدوين هذه الحكايات ، الحادثة التي رواها جورج كانيرو احد صاحبي الترجمة البرتغالية عندما كان في مصر عام ١٩٥٣ .

فقد نشر هذا الكاتب في جريدة « غازيتا » التي تصدر في سان باولو انه إلتقى في القاهرة عالماً اثرياً يدعى يوسف ابن غصن ، حدثه عن عثوره في احد مدافن البصرة على قبرية قديمة العهد كتب عليها مايلي :

في ذمة الله الرحمن الرحيم

ابنتي شمس النهار

وشمس ايامي وقمر لياليّ
الحب قتلك وانا احييتك
في حكاياتك التي رويتها لأبناء البحار
بركات الله عليك وعلى ابيك

سلام بن عصفور

ويروي كانيرو ان ابن غصن أفاده بأن هذا الاكتشاف قاده الى الاعتقاد بأن مؤلفات الف ليلة وليلة هو هذا الوالد الشاكل، لأن شمس النهار هي احدى حكايا الف ليلة وليلة .

بعد ذلك تتحدث الدراسة عن عيوب الكتاب وحسناته ، والمغالطات التاريخية فيه والمبالغات والإغراب في المصادفة ومخالفة الواقع واخبار المجون والدعارة والتعصب الديني والترداد والرتابـــة في الشعر المصنوع والخيال المغرق .

لست ادري كيف جاء بحث جسور الاتصال بين العرب والغرب وتأثر اوروبة بالحضارة العربية ، عن طريق الاندلس وصقلية والحروب الصليبية والاستشراق ، بعد بحث الف ليلة وليلة ، ليجيء بعد هذا البحث (مخطوطات الف ليلة وليلة) وترجمتها وطبعاتها العربية . مع العلم ان هذا الموضوع الاخير يتصل ببحث مقدمة الف ليلة وليلة الذي بُدىء به في الدراسة الثانية وهـــذا لايعني ان بحث جسور الاتصال ليس هاماً . انه من الاهمية بمكان لأنه بداية الاشعاع العربي على اوروبة العصور الوسطى ، وهو يؤكد بشكل لايقبل الجدل بان العرب كانوا يوماً معلمين وحضارتهم سابقة ومؤثرة في مجرى الحضارة الاوروبية التي تتبجح الآن وتشمخ نحو الشرق .

• • •

بعد هاتين الدراستين يأتي القسم الثاني من الكتاب والذي سمي الكتاب كله باسمه (حبات زمرد) ليقدم دراسات وطرائف شرقية ، صدّرهـــا الشاعر مؤلف الكتاب برأي حول جمال الأدب ونقده ، مركزاً على الناحية الجمالية في الشعر خاصة والصياغة .

وأعتقد ان هذا الرأي ليس شاملاً ولا

كلي الهدف . فالجمالية ركيزة ولكنها ليست الشعر كله والا لقلنا عن قصائد الوصف مثلاً التي تخطاها العصر إنهـا أروع ما في الشعر .

وفي الصياغـة احياناً الكثير من القسرية والتعقيد كما هي الحال عند ابي تمام الذي قال عن نفسه : انه ينحت من صخر .

أما رأي الأستاذ معلوف في لغة الشعر ، – العامية والفصحى – فلا يقف من احداهما موقفاً حاسماً ، مع العلم ان الفصحى مهددة في الوطن العربي نتيجة اختلاف اللهجات بين الأقطار ، وحتى اللهجة قد تختلف بين مدينة واخرى في القطر الواحد . اننا بالنسبة للادب العربي نعطي للفصحى دورها الاول ، وهذه الفصحى تستطيع ان تخدم الشعب عندما تبسّط محافظة على هيكلها ، آخذة من العامية الكثير من الكلمات التي لها جذور قاموسية او معنوية . اننا بذلك نرتفع بالشعب الى مستوى لغته المجيدة والبليغة ، وتلك هي بداية الحضارة في مجال الادب والفكر العربيين .

لعل في (حبات زمرد) هذا الكتاب الذي يقرأ عن جدارة ، ويغني ، شيئاً جديداً وفريداً الى حد ما هو مقتطفات من ادب الفرس . يتحدث فيه الشاعر الكاتب عن أدب فارس القديم ، ونهضة الشعر الفارسي والعزب ، وحكاية نظم الشاهنامه ، ثم الشعر الغنائي والصوفي . يصل بعدها الى شاعرين من اعظم شعراء فارس هما سعدي الشيرازي وحافظ الشيرازي .

أقدم هنا بعض أشعار هذين الشاعرين تاركاً للقارىء مهمة اكتشاف روعة هذا الشعر الشرقي المجهول بالنسبة لنا والذي نحس فيه ، روح الحدس العربي وصوفيته واشراقـه الحياتي وحكمته ، يقول سعدي الشيرازي :

- **« انجع دواء البؤس هو العمل . »**
- **قال ملك ظالم لأحد الدراويش ماذا تحمد من اعمالي ؟ فأجابـه : « قيلولتك . ففي ابان نومك لا ينالنا اذاك » .**

ثم يقول :

● « ثق بالمرأة التي تعطيك شفتيها وهي تنظر اليك .

أما اذا اطرقت جفنيها لأول قبلة منك فكن منها على حذر

لأنها هي وحدها تعرف الرجل الذي تستقي قبلتها من شفتيه .

وتقول لك انها لم تعشق سواك ، فتبتسم انت لأنها كاذبة . »

غير أن حافظ الشيرازي الذي يشبه عمر الخيام والذي سمي بشاعر الحب والخمرة هو اكثر عمقاً وحساً من سعدي. فهو يقول في الخمرة : « مباركة اليد التي قطفت العنقود ، ووقيت العثار الرجل التي داسته .

● اقبليني فانني أفتش في الخمرة عن خوابي ولكن من يدري ؟ فقد يكون في الخراب كنز مخبوء .

● أعطني الكأس أيها الساقي ففي مرآته نبصر أحبابنا الغائبين .

● الشمس حارة كالخمرة، والقمر بارد كالكأس ، فاسكب لنا الشمس في القمر .

● لئن بدلت الجامع بالحانة فما علي من جناح! ان الموعظة كانت طويلة . والعمر قصير .

● اضرب مطمئناً اوتار عودك ، واعزف أغانيك لنفسك .

● عج ايها العابر بقبر حافظ ! ولئن كان قبره ملطخاً بالآثام فقد يكون الله اختاره من بين جميع خلقه لينعم بالفردوس .

● ان اغانيك قد بقيت لك ! وقد بقي لك حبك »

هذه مقتطفات متفرقة من كلمات لشاعرين فارسيين ، ليس في الشعر الغربي والعربي ما هوا كثر منها عذوبة . اقتصرت عليها لأدع للقارىء فرصة اكتشاف الكلمات الاخرى المبثوثة في هذه الجنات الزمردية .

. . .

ويتحدث الشاعر الكاتب عن (مرداد)

نعيمة . هذا الكاتب الاسطوري الذي الفه ميخائيل نعيمة مسيح الشخروب ، وضمنه آراءه وتعاليمه وفلسفته الحياتية، وقد استمده من حياته الناسكة في قريته البعيدة المعزولة .

وشفيق معـلوف يفسر شخوص وامكنة الكتاب ، ويعتقد ان (مرداد) هو جبران .

ان (حبات زمرد) وثيقة ادبيـة مختصرة ، تستحق التسمية وتستحق ان تُقرأ .

حيدر حيدر



كتاب الطبقات

– تأليف : خليفة بن خياط
– تحقيق : سهيل زكار
– نشر : وزارة الثقافة بدمشق – القسم الاول ١٩٦٧

إن المعلومات المتوفرة للباحث الحديث عن خليفة بن خياط وحياته ضعيفة جداً . ويظهر أنه اقتصر في تلقي العلم على بلده البصرة ، حتى أنه – فيما يبدو – لم يدخل بغداد قط . وكان جده من رجال الحديث الثقات عند البخاري وابن أبي حاتم الرازي .

صنف ابن خياط – فيما ذكر ابن النديم – أربعة كتب هي : (كتاب التاريخ) و (كتاب طبقات القراء) و (كتاب تاريخ الزمنى والعرجان والمرضى والعميان) و (كتاب أجزاء القرآن وأعشاره وأسباعه وآياته) .

وقد عمد سهيل زكار – معيد في قسم التاريخ بجامعة دمشق – الى تحقيق (كتاب الطبقات) المحفوظة مخطوطته في المكتبة الظاهرية والذي يعتقد أنه هو (كتاب طبقات القراء) ، وهو من أقدم ما وصل إلينا من كتب الطبقات ، فابن خياط معاصر لابن سعد الذي

وصلتنا طبقاته ناقصة ، وفيها سقط كثير.

يضم الكتاب تراجم حوالي ٣٣٧٥ من الصحابة والتابعين وتابعيهم رجــالاً ونساء وقد تكررت تراجم بعضهم ولا سيما الصحابة .

وقد بدأ المؤلف كتابه بالتحدث عن الرسول (ص) ثم اخذ يترجم للصحابة ، حتى اذا تحدث عن الامصار ترجم لصحابة كل مصر ثم لتابعيه .

وأما الصحابيات فأفرد لهن باباً خاصاً في آخر الكتاب .

وقد روى المخطوطة عنه تلميذه موسى بن زكريا التستري ، على النحو التالي :

(... حدثنا خليفة قال : حدثني حاتم بن مسلم ، عن ابي معشر ، عن محمد بن قيس قاص عمر بن عبد العزيز ، واسماعيل بن رافع ، قال : قال رسول الله — ﷺ — : « انسبوني » ، ثم قال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد » ...) .

وقد رتب ابن خياط الصحابة حسب انسابهم وقرابتهم من الرسول ثم تحدث عن التابعين وفق انسابهم أيضاً .

ويفيد نهج ابن خياط — في تقسيم الطبقات حسب القبائل — في معرفة قبائل كل مصر من الأمصار ، اي في معرفة حركة انتشار القبائل العربية وتوزيعها جملة وتفصيلاً. ذلك أن ابن خياط يترجم لرجاله، ليس فقط حسب قبائلهم الكبيرة وانما حسب اصغر الأفخاذ والفصائل . ومن عادته ان يذكر نسب المترجم كاملا حتى اعلى اجداده، وبهذا يصبح الكتاب — بالاضافة الى كونه كتاب طبقات — كتاب أنساب. وابن خياط — كما وصفه المؤرخون — محدث مؤرخ نسابة .

وهــذا المنهج يفيد ايضاً في دراسة تاريخ بني امية ، اذ كان للعصبية فيه

شأن كبير، وعندما يعرف المؤرخ قبائل كل اقليم في الدولة يستطيع التوصل الى حل كثير من المعضلات، ويقف على التيارات السياسية وأسرار الحوادث.

ويظهر ان ابن خياط كان يحرص ألا يفوته ذكر أية قبيلة من القبائل النازلة في الأمصار، حتى التي لم يعرف فيها محدثون. فكان اذا ما ذكر واحدة من هذه القبائل قال: «ليس فيها احد». يعني من حملة الآثار.

ومن عادة ابن خياط، حين يترجم للصحابي، أن يشير الى الأحاديث التي رواها هذا الصحابي.

والغالب على تراجم ابن خياط لرجاله انها مقتضبة، فهو يذكر اسم المترجم ونسبه ونسب أمه، وسنة وفاته ومكانها، واحاديثه، دون الالمام بشيء عن حياته، وتكاد تراجم التابعين تكون مجرد تعداد لهم في طبقاتهم.

وان اهتمام ابن خياط بذكر امهات رجاله وانسابهن، يفيد في التعرف على الصلات بين القبائل، لأن التزاوج بين قبيلتين يعني في معظم الأحيان وجود تعاون بينها.

ويؤرخ الكتاب دخول المرأة الاجنبية البيت العربي، وبدء حلول الأمة مكان الحرة، وكيف تدرج هذا وازداد.

اصدرت وزارة الثقافة في القطر العربي السوري القسم الاول من هذا الكتاب ويضم طبقات المدينة واليمن والكوفة وطبقات البصرة عدا الطبقة الثانية عشرة التي سيبدأ بها القسم الثاني الذي يرصد الطبقات في الامصار الاخرى.

ظ. ع.

محاضرات :

● أرجع د . جميل صليبا — في محاضرته التي ألقاها في دمشق — ضرورات التعاون الثقافي بين الدول العربية الى أمرين : الأول : كون الدول العربية مازالت مستقلة كل واحدة منها عن الأخرى . والثاني : رغبة الشعوب العربية في قلب العلاقات الثقافية الطبيعية بينها الى اتفاقات مدروسة . وعزا عدم تنفيذ توصيات المؤتمرات الثقافية العربية الى أسباب سياسية ونفسية واقتصادية .

واشار الى ان ثمة بعض الدول العربية مازالت متأثرة بالنفوذ الثقافي الأجنبي رغم استقلالها ، وفي ذلك تعويق لتوثيق الصلات الثقافية بين الاقطار العربية المختلفة

وأشار المحاضر الى أن التزام البلاد العربية بحرية تبادل المطبوعات والأفلام السينمائية والمعارض بينها لا يمس سيادة أي قطر منها ، ومع ذلك فان هذا مايزال يتعثر . واقترح إنشاء هيئة عربية للثقافة لها شعب في الأقطار العربية لتنفيذ التعاون الثقافي بين دول تجمعها ثقافة واحدة .

● مجانين يمثلون الشعب يطالبون بالمزيد من الدماء ، وأحد زعماء الثورة الفرنسية (مارا) يدعي الإصلاح ، والماركيز (دي ساد) يهزأ من (مارا) .. هؤلاء هم أشخاص مسرحية (مصرع مارا كما يمثله مجانين مصح شارنتون العقلي باشراف الماركيز دي ساد) للكاتب الدساوي بيتر فايس (ألمانيا

الديموقراطية) ، التي ألفت عام ١٩٦٤ وعرضت على مسارح باريس ولندن ونيويورك .

والمسرحية تأمل عميق عن الثورة كما يستنتج من محاضرة ألقاها في دمشق د . رفيق الصبان .

● ألقى المستشرق الألماني د.ديتر بيلمان محاضرة عن ابن الوشاء ، صاحب كتاب (الموشى) .وهومخضرم بين القرنين الثالث والرابع الهجري، وكان موضوع أطروحة بيلمان التي نال بها الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة (هاله) في جمهورية ألمانية الديموقراطية . افتتح د . بيلمان محاضرته بالتمييز بين المستشرقين الذين يعملون ضد العروبة والمستشرقين الذين ينصرفون باخلاص لاحياء التراث العربي . ثم استعرض آداب المجتمع العباسي من خلال آثار ابن الوشاء . فتحدث عن تدابير النظافة في ذلك العهد وماروي من أن بغداد كان فيها ٥ — ١٠ آلاف حمام . كما روى طرفاً من حياة ذلك المجتمع ولاسيما القيان اللواتي كن يبتززن أموال الاثرياء . وأخيراً تساءل د . بيلمان : لماذا لم يذكر ابن الوشاء شيئاً عن الاخطار التي كانت محيطة بنظام الحكم : إعتماد المعتصم على جيش تركي ، ثورة الزنج في البصرة ، حركة القرامطة في شبه جزيرة العرب، قيام الدولة الفاطمية في مصر؟ أسئلة كثيرة كل واحد منها يحتاج شرحه الى حديث قائم بذاته .

فنون جميلة

● تمثال (الثوري العربي) الذي صممه ونفذه الفنانون السوريون محمود جلال ووديع رحمة وعبد السلام قطرميز خلال ثلاثة أشهر تقريباً ، أقيمت نسخته الجصية في ساحة (يوسف العظمـة) في قلب العاصمة السورية ، وهي الساحة التي تحمل اسم وزير الحربية الذي أبى ان يدخل الجيش الفرنسي دمشق إلا على جثته . بلغ ارتفاع القاعدة التي أقيم عليها التمثـال خمسة أمتار ، أما التمثال نفسه فقد بلغ ارتفاعه مع الشعلة التي يحملها الثوري

العربي خمسة امتار أيضاً . وقد تضمنت قاعدة التمثال صوراً تمثل مختلف قطاعات الشعب . سيصب التمثال في قالبه البرونزي ويثبت في مكانه تثبيتاً دائماً ، بعد ابداء الملاحظات الفنية عليه وإدخال التعديلات اللازمة على ضوئها .

● الفطرة والطفولة وفقدان الانسانية اجتمعت في معرض (باغانيلي ـ مدرس ـ مخلوف) الذي اقيم في دمشق .

مثلت قطع الفنانة الامريكية (دونا باغانيلي) اتجاهات جديدة في الفن الامريكي ، وحاولت ان تعبر عن هزيمة القيم الانسانية امام التقدم المادي . بدا ذلك في قطعة (حفلة كوكتيل) التي تتألف من حاك (بيك آب) وفوقه محور يدور معه ، يمثل الحياة الاجتماعية التي يضيع فيها الانسان ، وقالت الفنانة انه كان ينقصه تسجيل صوتي يعبر عن الضجة التي تحطم اعصاب الانسان المعاصر . كما يبدو فقدان الانسانية في الوجوه التي نحتتها ممحوة معالمها او مشوهة وفي الاجسام تحركها النوابض حركة آلية .

اما الفنان السوري فاتح المدرس الذي قال فيه احد الفنانين الايطاليين :

« ان رسالة الفنان فاتح مدرس هي الجمع بين القديم والحديث نتيجة للعوامل التي تساهم في استمرار الحياة البشرية وتجعل من الانسان ابناً لبيئته اولاً ومن ثم ابناً للانسانية » ، فقد استمر في هذا المعرض في التعبير عن الطفولة في لوحاته من خلال تجربة عنيفة يبدو انه يعيشها .

ومازال سعيد مخلوف في حوار مع الخشب السوري يحاول ان ينحته بما ينسجم مع تكوينه ، فتعبر المنحوتات الخشبية في هذا المعرض عن جمال فطري .

● هدى الايوبي مدرسة الزخرفة على النحاس والخشب والجلد والزجاج في مركز الفنون التطبيقية بدمشق ، تنوي نقل معرضها الاول ـ الذي يضم لوحات نحاسية وخشبية ـ من دمشق الى لبنان وبلغاريا والاتحاد السوفييتي .

والفن التطبيقي فن شعبي صرف يتجه مباشرة للحس الجمالي الفطري ،

ثم يتجه بدون وساطة الى قلوب الناس واذواقهم ، وبهذا تشكل هذه الاعمال جانب الفرح والزينة الجميلة لديهم . وفي هذا المعرض نماذج من هذا الفن قد تبدو جديدة بين فنوننا الشعبية، ولكن الزائر يشعر معها بالألفة لما تضمنته من مواضيع استوحتها الفنانة من الريف السوري والاحياء الشعبية والتقاليد التي تحمل معاني الحب .

دوريات

● (نهاية الاستعمار) ، قصة للكاتب الجزائري محمد ديب ، ترجمها عن الفرنسية الاديب السوري جورج سالم الذي تخصص مع الاديبين السوريين د. سامي الدروبي وفريد انطونيوس بترجمة آثار محمد ديب . نشرت القصة في الكتاب السنوي الذي اصدرته دار المعلمين العامة بحلب في سورية . وقد بدأت الدار في إصدار هذا العدد اعتباراً من هذا العام .

● الحلقة ١٥ من سلسلة (تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات) في دير الزور بسورية ، تحقيق عن (الطير في حياتنا وتراثنا) لعبد القادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدمشق .

● في الحلقة الثالثة من مجلة (الكلمة) مقالات وشعر وقصص لبعض الادباء العراقيين . اصدر المجلة في النجف في مطلع آذار ١٩٦٧ الاديب حميد المطبعي .



جولة الشهر

في ذكرى

ابن باديس

بقلم رئيس التحرير

نموذج للمناضل المؤمن بأمته وحقها في الحرية . جـذوة ذكاء وحيوية ، تتأجج كفاحاً ، وفكراً ، وتوجيهاً ، وكتابة ، وأسفاراً . شخصية بلغت من الغنى والتنوع درجة كانت معها متفوقة في السياسة ، والأدب ، والفقه ، والصحافة ، والشعر ، والوعظ ، على حد سواء .

كان طاقة هائلة ، ما تكاد تنضب في الليل حتى تتجدد في الصباح . كان عليه أن يرعى شؤون جمعية العلماء ، وأن يكتب لمجلة « الشهاب » ، وأن يفكر في الأحداث التي يفتعلها الاستعمار الفرنسي كل يوم لاضطهاد الشعب ، وأن

يدرّس طلابه في الجامع الأخضر بقسنطينة ، وأن يلتقي بالناس في المساء ليعظهم في أمور الدين ، ويرشدهم في أمور الدنيا ، وأن يحتبل المناسبات ليسافر ، وسط ظروف صعبة ، الى الريف الجزائري، ويجتمع الى اولئك « المعذبين في الأرض» ، ويشد أزرهم ، ويزرع الأمل من جديد ، في نفوسهم ، ليواصلوا الكفاح الشاق ، والمسيرة الطويلة التي تفجرت فيما بعد حرباً تحررية ، عربية ، إشتراكية ، وانتصرت.

تلك كانت حياة عبد الحميد بن باديس الذي احتفلت الجزائر ، في شهر نيسان (أبريل) الماضي ، بالذكرى السنوية السابعة والعشرين على وفاته . وفي هذه المناسبة الجليلة ، أقيمت مهرجانات تذكارية ، في عاصمة الجزائر ومدنها الكبرى ، وبخاصة في قسنطينة ، ألقيت فيها كلمات ، وبحوث ، ومحاضرات . كما خصصت الصحف والمجلات « المجاهد » و « الشعب » و « الثورة الأفريقية » مقالات كثيرة أشادت فيها بابن باديس : الفقيه ، البطل القومي ، رئيس جمعية العلماء ، الداعية لعروبة الجزائر ، المدافع عن الفصحى ، ووجوه أخرى عديدة من هذه الشخصية العربية الجزائرية الفذة .

وطبيعي جداً أن تعرب الجزائر ، في كل سنة ، عن تقديرها ووفائها لهذا المجاهد المفكر ، وأن يعلن شباب الجزائر وأجيالها الفتية عن عرفانهم لما قدمه ابن باديس ، من قبلهم ، في سبيل حرية وطنهم . فابن باديس لم يكن مناضلاً من مستوى جيله وحسب ، بل هو مازال أمثولة في النضال الفعال ، وما تزال آثاره التي خلفها غذاء فكرياً ووجدانياً طيباً لهذه الأجيال الحديثة . لقد استطاع ، بفضل ذهنه المتقد ، وبصيرته الواسعة ، أن يتخطى حدود زمانه وجيله . إنه « لم يكن عالماً دينياً فحسب ، ولم يكن شخصية وطنية فقط ، ولم يكن مفكراً سياسياً وكفى ، ولكنه كان كل ذلك . فأعان الى حد كبير على

رسم معالم الشخصية الوطنية للجزائر ، وساهم في معركة الدفاع عنها ، بأقوى سلاح ممكن ، وهو سلاح الفكر المؤمن [1] » .

هذا الاعتراف بقيمة ابن باديس ، وأصالته في كفاح الجزائر التحرري ، لايكفي أن يتكرر مرة كل سنة ، بمناسبة ذكراه ، وإن يكن بذاته دليلا على شعور قومي صادق تجاه هذه الشخصية العظيمة .

لقد انقضت سبعة وعشرون عاماً على وفاة عبد الحميد بن باديس ، استعادت الجزائر خلالها حريتها وسيادتها ، وقام فيها حكم عربي تقدمي اشتراكي . وكان حرياً بالجزائر ، الرسمية والشعبية ، أن تجمع آثار هذا المجاهد الكبير وكتاباته ، وأن تطبعها بصورة لائقة وتضعها بين أيدي القراء الجزائريين والعرب لينهلوا منها . ومن المؤسف أن ذلك لم يحدث حتى الآن . إن من أعظم شعائر التقدير نزجيها لابن باديس ، ان تعمل الجزائر ، اليوم قبل غد ، على طبع آثاره ومؤلفاته ، وأن تمكن الناس من مطالعتها ، وأن تضمّن الكتب المدرسية نماذج من تفكيره وأسلوبه ، وأن تيسر اجراء دراسات وبحوث واسعة عن حياته وآثاره . فابن باديس يستحق هذا كله ، واكثر من هذا أيضاً .

* * *

واذا تركنا هذا التقصير جانباً ، قلنا ان المقالات التي نشرت في مجلات الجزائر وصحفها خلال شهر نيسان (ابريل) الماضي ، تدل دلالة واضحة على مدى مايكنه المثقفون الجزائريون من اهتمام لابن باديس . ثم ان هذه المقالات يمكن ان تعتبر تمهيداً لبحوث مطولة في مجالات الكشف عن جوانب تفكيره .

---

(١) مجلة « المجاهد » — العدد ٣٦٣ — نيسان (ابريل) ١٩٦٧ .

ان « ابن باديس .. هذا المجهول » على حد تعبير المفكر الجزائري محمد الميلي[1]، يحتاج الى من يسلط مزيداً من الاضواء عليه . وأبرز الجوانب التي تلفت انتباه الباحث في شخصيته، هو جانب المفكر السياسي، فقد كان «يهتم بالمشاكل السياسية ، ويناقش فيها، ويتحدث الى الجماهير عنها ، لكنه لم يكن يقتصر في تناولها على الجانب الآني الذي يشترك في تصوره كل المثقفين ، بل كان يتجاوز ذلك الى تحليل كل الابعاد العميقة التي لاتظهر للعيان في الإبان ، لأنها ماتزال مختفية في اطوار المستقبل»[2] . إن كثيرين يتفقون مع محمد الميلي على بروز هذه الظاهرة عند ابن باديس . فهو لم يكن يعالج الأحداث السياسية يوماً بيوم ، بل كان يقدر سلفاً أبعادها المقبلة ، ويحسب مسبقاً حساب نتائجها للمستقبل . من هنا تجلت عند ابن باديس السياسي ، ظاهرة المرونة الشديدة في طرح الشعارات ، وتطويرها ، وتكييف النضال الشعبي حسب الظروف . فاذا كان شعار هذا النضال في السنوات ١٩٢٩ — ١٩٣١ : « الحق والعدل والمؤاخاة في اعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات » ، فهو في سنة ١٩٣٨ شعار المطالبة بالحرية والسيادة :

« ايها الشعب الكريم ! إعرف اصدقاءك من اعدائك — وما اصدقاؤك إلا الذين يحترمون الانسانية في جميع أجناسها ، وجميع أديانها ، ويرحمون الضعيف ، وينصرون المظلوم ، وما اعداؤك الا الذين وقفوا لك في طريق الحياة والتقدم ، منذ عرفتهم وعرفوك ، فسدوا عليك ابواب الرزق والعلم، وسلبوك الحرية والثروة ، واستغلوك كما تستغل الحيوانات العجماء ، بل اشد

---

(١) ابن باديس .. هذا المجهول — مقال بقلم محمد الميلي — جريدة الشعب الجزائرية — ملحق خاص عن عبد الحميد بن باديس — العدد ١٣٤٤ — ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٦٧ .

(٢) من مقال محمد الميلي — المصدر السابق .

وأشهر شعار : «ليسقط الظلم والاستعباد » . وحين عاد ابن باديس من المؤتمر الاسلامي الذي عقد بباريس سنة ١٩٣٦ ، طرح شعار الحرية على جماهير الجزائر طرحاً آخر ، اذ قال : « أيها الشعب ! انك بعملك العظيم الشريف ، برهنت على انك شعب متعشق للحرية ، هائم بها ، تلك الحرية التي مافارقت قلوبنا منذ كنا الحاملين لوائها ، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها ، وكيف نحيا ونموت لأجلها » .

وجانب المصلح الاجتماعي والموجه الديني ، لا يقل عند ابن باديس عن جانب القائد السياسي . انهذا الذي كان رئيساً «لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين» قد لعب دوراً مماثلاً للدور الذى لعبه الشيخ محمد عبده ، في مصر ، في تثقيف الجماهير ثقافة دينية واجتماعية متحررة من الضلالات والشعوذات ، حافزة على إعمال الفكر ، وفهم التطور الانساني : « أتمنى لاخواننا المسلمين في كل ناحية أن يشتغلوا بما يهمهم وينفع ، ويعلي ويرفع ، ويعرضوا عن سفاسف الأمور وبسائط المسائل ، فدينهم دين العصر والمدنية ، لا دين الجمود والهمجية . وعصرهم عصر جد وفصل ، لا عصر لعب وهزل ، والمتخلف عن القافلة هو بلا شك عرضة للأتعاب ، وطعمة للذئاب »(١) ان ابن باديس لم يقف ، سنة ١٩٢٩ ، من الجزائريين المتفرنسين المطالبين بتحرير المرأة الجزائرية وتعليمها ورفع الحجاب عن وجهها ، موقف المستنكر كلياً لوجهة نظرهم ، بل أبان في محاضرة شهيرة القاها في تلك السنة في نادي « الترقي » ان ثقافة المرأة الجزائرية وتعليمها ضروريان ، ولكن في اطار عربي – اسلامي . لماذا ؟ « لان تعليم البنت الجزائرية لغة غير لغتها ، وتاريخاً غير تاريخها من شأنه ان ينتج للجزائر اجيالاً تجهل ماضيها ، وبالتالي تتنكر لوطنها » .

(١) من مقال لابن باديس في جريدة البصائر – العدد ٢٠٢١ سنة ١٩٣٦

ولكنّ دعوة ابن باديس الى حرية الجزائر لم تنطلق من شعار « القومية الجزائرية » ، بل انطلقت من شعار « القومية العربيـــة » . ويخطىء كثيراً من يتصور ، استناداً الى تفسيره لبعض النصوص تفسيراً جزئياً ، أن ابن باديس كان ينادي بقومية جزائرية منعزلة او متميزة عن « القومية العربية » .

« إذا قلنا العرب ، فاننا نعني هذه الأمة الممتدة من المحيط الهنـدي شرقاً ، الى المحيط الاطلانطيقي غرباً ، والتي فاقت سبعين مليوناً عداً . تنطق بالعربية ، وتفكر بها ، وتتغذى من تاريخها ، وتحمل مقـــداراً عظيماً من دمها ، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ ، حتى أصبحت أمة واحدة .»

(من مقال لابن باديس سنة ١٩٣٨) . فالجزائر عربية ، ولا مكان لشك في عروبتها . **« لقد تعربت الأمة الجزائرية تعرباً طبيعياً ، اختيارياً ، صادقاً ، فهي في تعربها نظيرة إسماعيل جد العرب الحجـــازيين . فقد كان من العرب ، لمّا شبّ في مجدهم ، ونطق بلسانهم ، وتزوج منهم . وليس تكوّن الأمة يتوقف على اتحاد دمها . ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحهـا وعقولها ، اتحاداً يظهر في وحدة اللسان ، وآدابه ، واشتراك الآلام والآمال ـ ابن باديس ١٩٣٨ »** .

ـ وربما كانت الدراسة التي قدّمها الاستاذ صالح خرفي بعنوان « ابن باديس والعروبة »(١) من أجمل الدراسات التي كتبت في هذا الموضوع ؛ ففيها حرارة الكاتب الذي تعيش العروبة في فكره وشعوره ونشاطـــه ، وفيها صدق الكشف عن كفاح ابن باديس التحرري في إطار الأمة العربية ، وقد أبرز الأستاذ خرفي في دراسته هـــذه ، الرابطة الصميمة بين الإسلام والعروبة عند ابن باديس . فقد

---

(١) ملحق « الشعب » ـ العدد ١٣٤٤ ، أبريل ١٩٦٧ .

جهد هذا المفكر الكبير في إقامة هذه الرابطة في أذهان أبناء الجزائر ، وجعل منها قوة دافعة لمزيد من كفاحهم التحرري ضدّ محاولات التذويب الفرنسية :

شعب الجـــزائر مسلم | والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن اصله | أو قال مات فقد كذب
أو رام ادماجـــاً له | رام المحال من الطلب

وآمن ابن باديس بالأجيال الناشئة ، اكثر من ايمانه بأجيال معاصريه . إذ كان يرى فيها أمل الحرية ، وفجر استقلال الجزائر .

ومن الطريف أن هذا العلامة الوقور ، كان قريباً الى نفوس الشباب ، يشعرون به كأنه واحد منهم ، وكأنه يستقطب أمانيهم وطموحهم وتطلعاتهم :

يانشء انت رجـــاؤنا | وبك الصباح قد اقترب

وقد أدرك ابن باديس أن أجيال الجزائر الناشئة ستكون أكثر تشبثاً بعروبتها وأصولها القومية من الأجيال السابقة . فهي في صراع ، متزايد الشدة ، مع الاستعمار الفرنسي . وهي في صراع أشد ، لتوكيد بقائها ، والحفاظ على وجودها . ولا سبيل لذلك إلا بعودتها الى نسغها الأصيل ، الى عروبتها .

من هنا جاء اهتمام ابن باديس باللغة الفصحى وضرورة تعميمها بين الناس ، وتقليص اللغات العامية قدر الامكان . فليست مقارعة الثقافة الفرنسية ممكنة بفضل التشبث باللغات العربية العامية ، بل بفضل نشر اللغة العربية الفصحى . ان الفصحى هي أداة تحرير وتوحيد للعرب ، ويجب أن تغرس في جميع العقول . يجب أن نكتب ، ونخطب ، ونتحدث الى الناس ، ونؤلف ، ونحرر مقالات الصحف ،

بالعربية الفصحى . ذلك ما كان يفعله ابن باديس ، بل كان في كثير من الأحيان يتحدث بها الى أبناء الريف الجزائري ، وهم أميون .

* * *

لم يكن في حسابنا أن نقدم هنا دراسة وافية عن عبد الحميد بن باديس (رغم أن ذلك من أمنياتنا التي نرجو تحقيقها قريباً) بقدر ما ابتغينا أن نسهم — ولو بتواضع كبير — في الاحتفال بذكرى وجه من ألمع وجوه النضال والفكر في الجزائر الحديثة ؛ ولكننا ابتغينا من ذلك أيضاً أن نضم صوتنا الى اصوات اخواننا مثقفي الجزائر وكتابها ، بدعوة الحكومة الجزائرية الشقيقة الى أن تولي عناية خاصة بجمع اثار ابن باديس وطبعها . وعسى أن تتحق هذه الأمنية في وقت قريب . فابن باديس ليس للجزائر وحسب ، بل للعرب جميعاً .